أريك

نشرة غير دورية تصدرها
جمعية القاهرة الخيرية الأرمنية العامة

رئيس التحرير :
د . محمد رفعت الإمام
مستشار التحرير للمواد الأرمنية :
بيـــرج ترزيــــــان
سكرتير التحرير :
على ثابت صبرى

العنوان : **٢٦ ش مراد بك ـ صلاح الدين**
مصر الجديدة ـ القاهرة
تليفون : ٢٦٩٠٩٥٢٦(٠٢)
البريد الإلكترونى :
arekcairo@yahoo.com

رقم الإيداع : ١٨٣٧٤ / ٢٠١٠

إعداد وطباعة : **ديزايـن آرت**
ت : ٨١ ٧١ ٩٤٢ ٠١٢٧ ـ ١٩ ٠٨ ٢٤٣٣
da_emad@yahoo.com

المحتويات

الموضــوع — **الصفحة**

o **افتتاحية العدد** ١
روبيرت فيسك والأرمن : قراءة فى زمن المحارب
قراءة : عطا أحمد درغام

o **دراسات** ٦
بريطانيا وقضية الأرمن فى الدولة العثمانية ١٨٧٨ ـ ١٨٩٦
إعداد : على ثابت صبرى
عرض : أحمد محمد إنبيوه

o **أدب** ١٠
ضريبة اللباقة : التاجر ـ بارطوغيميوس أغا
تأليف : هاجوب بارونيان
ترجمة : د . نورا أريسيان

o **صحافة** ١٧
الأهرام وأسرة الصحافة المصرية
بقلم : د . رامى عطا

o **حواء** ٢٢
معجم المرأة الأولى فى مصر جـ ٤
إعداد : شيماء الشواربى

o **فكر** ٢٦
الأرمن والفكر السياسى العربى : قراءة فى فكر أديب إسحق جـ ١
إعداد : عطا أحمد درغام

o **وختاماً**
مصر المصوّرة
بقلم : د . محمد رفعت الإمام

السادة القراء الراغبون فى الحصول على هذا الإصدار مجاناً ، الرجاء موافاتنا بالبيانات الآتية :

الاســــــم : ....
المــهــنـــة: ....
الــعــنــوان : ....
البريد الإلكترونى : ....
الــتــلــيــفــون : ....

افتتاحية العـدد

روبيرت فيسك والأرمن
قــراءة فــى زمــن المحــارب

قراءة : عطا أحمد درغام

يُعد الكاتب الإنجليزى المشهور روبيرت فيسك من أبرز الصحفيين فى العالم الذين تصدوا لواقع الشرق الأوسط . وفى الواقع ، يُمثل تعاطى فيسك لحقائق الشرق الأوسط طعماً آخر بالنظر إلى جرأته وخبرته الواسعة فى العمل الصحفى ومتابعته ميدانياً ، ولأنه يُجيد اللغة العربية ويعرف المنطقة العربية أكثر من غيره ، ولأن له علاقات متنوعة مع كبار المسئولين والقادة ، فضلاً عن كونه موضوعياً مستقلاً لا يخضع لسلطة أو نفوذ . هذا ، وقد طرح فى جريدة «الإندبندنت» البريطانية أكثر الموضوعات سخونة وإثارة للجدل والخلاف مثل الحرب على العراق والحرب على لبنان والمحرقة اليهودية والتمييز العرقى فى فلسطين . وفى هذا الشأن ، قدّم شهادات حية من مواقع الأحداث . وحذر من خطر الأفلام الوثائقية وأجهزة الإعلام اللتين تحوران الأحداث وتُلفقان الأخبار وفق إرادات معينة . كما أبرز نفاق حكومات الغرب وفساد حكومات العرب .

وفى الآونة الأخيرة ، نشرت شركة المطبوعات للتوزيع والنشر بلبنان كتاباً بالعربية تحت عنوان «روبيرت فيسك : زمن المحارب ، كتابات مختارة» . والكتاب عبارة عن ترجمة لمئة مقال منشورة فى جريدة «الإندبندنت» ، وأعاد تصنيفها فى «١٣» فصلاً حسب موضوعاتها . هنا ، خصص فيسك الفصل الثانى من زمن المحارب للقضية الأرمنية وتداعياتها . وقد جاء الفصل تحت عنوان «النشر وتلقى الذم ، أم الاستمرار فى السكوت ؟» ، ويتكون الفصل من سبع مقالات . واستهل فيسك هذه السباعية قائلاً : «تُعد الإبادة الجماعية الأرمنية سنة ١٩١٥ ، إحدى الكوارث الأكثر شناعة التى واجهت الإنسانية فى القرن العشرين ؛ هذه الجريمة المنظمة التى أودت بحياة مليون ونصف مليون مسيحى أرمنى على أيدى الأتراك العثمانيين خلال الحرب العالمية الأولى . لكن الحلفاء الغربيين ، الذين أقرّوا بتلك الجرائم حينذاك ، يسمحون لتركيا المعاصرة بإنكار هذه المحرقة . ونظراً إلى الخطر والعيب اللذين يملآننا ، نرفض أن نُدين الأتراك العثمانيين فى شأن ما ثُبت أنه أساس اختبار تدمير هتلر لليهود الأوربيين خلال الحرب العالمية الثانية . لم أكن أعلم عندما بدأتُ بالبحث عن الإبادة الجماعية الأرمنية ، أن كتاباتى ستصطدم برفض تركيا الإقرار بالتاريخ» .

فى مقال نشرته «الإندبندنت» يوم ١٤ أكتوبر ٢٠٠٦ تحت عنوان «دعونى استنكر الإبادة الجماعية من قفص الاتهام» ، ناقش فيسك أفكار المؤرخ الأرمنى الأمريكى المرموق ڤاهاكن دادريان . وحسب رؤيته : فى حين تستمر تركيا فى الثرثرة عن براءتها ، يستمر علماء التاريخ من قبيل دادريان فى نبش دلائل جديدة على الإبادة المتعمدة بحماسة لا مثيل لها . وتتجسد «براءة» تركيا هنا فى قتل آلاف الرجال الأرمن بشكل منظم ، واغتصاب عصاباتها

باحث وكاتب

النساء ، ما يُفترض أن يكون نتيجة «الحرب الأهلية» المحزنة . وفى هذا الخصوص ، قُتل بعض الضحايا الأرمن بالخناجر والسيوف والمطارق والفؤوس توفيراً للأسلحة . ونُفذ كثير من عمليات الإغراق فى البحر الأسود ونهر الفرات . واكتشف دادريان أن مئات الآلاف من الأرمن قد أُحرقوا فى المتابن . واستشهد المؤرخ الأرمنى بشهادة الجنرال محمد وهيب باشا ـ قائد الجيش التركى الثالث ـ الذى شهد بأنه عندما زار قرية «شوريغ» الأرمنية ، رأى أن المنازل رُصفت بالهياكل العظمية المحروقة رصفاً محكماً . وحسب وهيب باشا : «فى تاريخ الإسلام كله ، من المستحيل الوقوع على مثل هذه الوحشية» .

علاوة على ما سبق ، استشهد دادريان بتصريح أحمد رضا : «فلنعترف بالأمر ، نحن الأتراك قتلنا الأرمن بشكل وحشى» . وحسب شهادة رشيد عاكف باشا : «كانت المهمة أن نُهاجم الوفود ونذبح الناس . . . يُخجلنى هذا الأمر كمسلم وكرجل دولة عثمانى . لوّث هؤلاء المجرمون سمعة الإمبراطورية العثمانية» .

ويُعلِّق فيسك على نتائج دادريان بأنه أمر يفوق الطبيعة أن يتحدث الأتراك الرفيعو الشأن عن تلك الحقائق سنة ١٩١٨ ، وأن يُقروا بالكامل فى برلمانهم «مجلس المبعوثان» بالإبادة التى أنزلوها بالأرمن ، وأن يقرأوا المقالات فى الصحف التركية عن الجرائم الكبرى المرتكبة فى حق الشعب المسيحى . والأغرب اليوم ، إنكار خلفائهم تلك الوقائع وعدّوها مجرد رواية ، مع حرصهم على محاكمة أى شخص يجرؤ فى إسطنبول اليوم على أن يُقر بما أقر به رجال عام ١٩١٨ خوفاً من الوقوع تحت طائلة المادة رقم ٣٠١ الخاصة بـ «إهانة القومية التركية» .

وفى نهاية المقال ، أشار فيسك إلى نشر كتابه «الحرب الكبرى تحت ذريعة الحضارة» باللغة التركية ، وبه فصل طويل عن الإبادة الأرمنية . وقد تلقى رسالة من أعضاء مجموعة كتب «أجورا» فى إسطنبول ، مشيرة إلى ما قاله محاميهم : «اعتقد أنهم سيُحاكمون بموجب المادة رقم ٣٠١» . وحسب فيسك ، بوصفه أجنبياً «سأكون صعب المنال» ، ولكن يُمكننى أن أطلب من القضاء التركى المثول أمامه فى أية محاكمة ، إذا رغبتُ فى ذلك شخصياً ، أشك فى أن يصل منكرو الإبادة الأتراك إلينا ، ولكن إذا استطاعوا ذلك ، فسيُشرفنى أن أقف فى قفص الاتهام مع الناشرين الأتراك لاستنكار إبادة دانها حتى مصطفى كمال أتاتورك مؤسس دولة تركيا المعاصرة نفسه .

وفى مقال نشره فيسك على صفحات «الإندبندنت» يوم ٢٠ مايو ٢٠٠٦ ، انتقد الكاتب البريطانى بشدة رسالة تلّقاها من السفير التركى بلندن أكين ألبتونا وخلاصتها : «تدّعى حدوث إبادة أرمنية فى شرق الأناضول سنة ١٩١٥» ، وأضاف السفير : «أظن أنكَ أسأتَ فهم تلك الأحداث» . هنا ، علّق فيسك بقوله : «آه ، بالطبع أسأتُ الفهم . أسأتُ فهم فكرة قتل مئات آلاف الأرمن فى شكل وحشى ، وعن إصرار وتصميم مسبقين ، على أيدى الأتراك العثمانيين فى عام ١٩١٥ . وعرج فيسك إلى مسألة التخلص من الأرشيفات التى تخص دبلوماسيين أدانوا فى شجاعة الجرائم التى ارُتكبت فى حق الشعب المسيحى التركى تنفيذاً للأوامر الصادرة عن مواطنين شكلوا عصابات ، وحكموا الحكومة العثمانية سنة ١٩١٥ .

وطرح فيسك سؤالاً جد مهم : لماذا حقاً ينشغل السيد ألبتونا وزملاؤه بهذا «الهراء» ؟ . على سبيل

المثال ، أرسلت السفارة التركية «بلاغاً رسمياً» إلى صحيفة «لوريان لوجور» الفرنسية بلبنان مشيرة إلى ما يُسمى الإبادة الأرمنية ومتسائلة لماذا ترفض أرمينية دعوة تركيا إلى دراسة مشتركة للتاريخ بهدف «معاينة أحداث» ١٩١٥ . فى الواقع لن يقبل الرئيس الأرمنى روبيرت كوتشاريان هذه الدعوة لأن مجرد الشك فى هذا الموضوع سيُعد إهانة لملايين الضحايا الذين قُتلوا .

وعن الوجه المشرق ، أشار فيسك فى مقاله إلى مجموعة «الأتراك الصالحين» الذين تحدوا كذب حكومتهم فيما يخص الإبادة الأرمنية عام ١٩١٥ من قبيل أحمد إنسيل وباسكين أوران وخليل بيركتاى ورجب زاراكولو . ولكنه ينتقدهم فى توصيف ما حدث كونه «كارثة» و «مجزرة» و «نزاع» طاولت الأرمن فى عام ١٩١٥ . وتطرّق فيسك إلى الدكتورة فاطمة جوسيك من جامعة ميتشجان ، بين الأكاديميين الأتراك الأكثر شجاعة الذين يُحاربون بهدف مواجهة إرهاب الإمبراطورية العثمانية على الأرمن . بيد أنها ترفض هى الأخرى استخدام مصطلح الإبادة - رغم أنها تُقر فعلاً بهذا الجرم - من منطلق أنه قد تم «تسييسه» ، ومن ثم ، فهو يعوق الأبحاث . ورغم تعاطف فيسك قليلاً مع هذه الحجة ، فإن رافائيل ليمكين البولندى اليهودى أشار إلى المذابح الجماعية للأرمن فى عام ١٩١٥ أثناء إعداد الأمم المتحدة لمصطلح «الإبادة» خلال الفترة من ١٩٤٦ ـ ١٩٤٨ .

وفى نهاية المقال ، تحدث فيسك عن فتح أرشيفات دبلوماسية جديدة فى الغرب تكشف عن رائحة موت الأرمن . وفى هذا الصدد ، اقتبس الكاتب البريطانى ما كتبه كارل ويندل - دبلوماسى دنماركى فى الدولة العثمانية أثناء الحرب العالمية الأولى ـ فى ٣ يولية ١٩١٥ : «يسعى الأتراك إلى القضاء على الشعب الأرمنى فى شكل عنيف ، كما تُمليه عليهم نياتهم السيئة» . طُلب من أسقف خربوط مغادرة حلب خلال يومين «وعُلم فيما بعد ، أن هذا الأسقف ورجال الدين المرافقين له قُتلوا بين ديار بكر والرها ، فى مكان حيث عانت ١٧٠٠ عائلة أرمنية المصير نفسه . . . وفى أنقرة ، قُتل ٦٠٠٠ رجل فى الشارع . حتى هنا فى القسطنطينية (الأستانة) ، يتعرض الأرمن للخطف والشحن إلى آسيا . . . » .

وفى عدد ٢٠ يناير ٢٠٠٧ ، نشر فيسك على صفحات «الإندبندنت» مقالاً بعنوان «ضحية الإبادة الجماعية الأرمنية الـ ١٥٠٠٠٠١» . وقد دار المقال حول اغتيال الصحفى الأرمنى هرانت دينك محرر جريدة «آجوس» الأسبوعية التى تُصدر فى إسطنبول باللغة الأرمنية . وكان دينك يُحاول أن يخلق حواراً بين الأتراك والأرمن بهدف التوصل إلى رواية مشتركة لأول إبادة فى القرن العشرين . بيد أنه دفع الثمن : رصاصتان فى رأسه وأخريان فى جسمه . وحسب فيسك ، لم يكن هذا بمثابة ضربة مخيفة للمجتمع الأرمنى الناجى فى تركيا وحسب ، بل هو أيضاً إبطال مدمِّر لأمل تركيا فى الانضمام إلى الاتحاد الأوربى .

واسترجع فيسك اتهام دينك بـ «العداء للقومية التركية» بموجب المادة ٣٠١ من قانون العقوبات التركى . وقد أنكر دينك هذه التهمة بإصرار ، حتى بعدما حكمت عليه المحكمة فى إسطنبول بالسجن ستة أشهر . وأثناء المحاكمة ، ظهر دينك على شاشات التليفزيون التركى والدموع فى عينيه حيث قال : «أعيش مع الأتراك فى هذا البلد وعلاقتى متينة معهم . لا اعتقد أن فى إمكانى العيش فى هذا البلد ، وأنا أهينهم» . وأثناء دفاعه قال دينك : «قلتُ أننى مواطن تركى لكننى أرمني ، ورغم أننى صادق ومجتهد فى

عملى ، فإننى لستُ تركياً بل أرمنى» . وفى الحقيقة ، كان دينك يكره جملة من النشيد الوطنى التركى تُشير إلى «عرقى البطولى» ؛ إذ أنه لم يكن يُحب إنشادها . وحسب تبريره ، أنـه يرفض استخدام كلمة «عرق» المرتبطة بـ «العنصرية» .

واصل روبيرت فيسك اهتماماته بالشأن الأرمنى ؛ إذ خصص مقاله فى نفس الجريدة يوم ١٧ مارس ٢٠٠٧ للحديث عن نشر كتابه «الحرب الكبرى تحت ذريعة الحضارة» خلسة وفى هدوء تام بتركيا لأنه ضم فصلاً عن الإبادة الأرمنية . وفى هذا الصدد ، وصف فيسك الناشرين الأتراك بـ «الجبن» وأبدى غضبه وغيظه تجاههم : «يُريد الناشرون الأتراك أن ينشروا كتابى ، كما لو كان يدور حول البورنوغرافيا غير القانونية» . واستدعى الكاتب البريطانى بهذه المناسبة ظروف نشر كتاب المؤرخ التركى تانير أكچام «أعمال مخزية : الإبادة الأرمنية وموضوع مسئولية الأتراك» باللغة التركية ؛ فقد نُشر الكتاب فى «هدوء» ، ودون مراجعة واحدة . وجدير بالذكر أن هذا المؤرخ قد استعان بمستندات الدولة العثمانية وبيانات عن تركيا المعاصرة ثابتاً أن الإبادة عمل تاريخى مرعب .

فى ٢١ يولية ٢٠٠٧ ، نشر فيسك مقالاً تحت عنوان «تعارض المصالح» ، خصصه لمعركة توصيف ما حدث للأرمن فى عام ١٩١٥ . وفى هذا الصدد ، أشار إلى أن جريدة «لوس أنجلوس تايمز» طلبت من المراسل مارك أراكس الأرمنى الأمريكى كتابة «قصة روتينية عن الإبادة الأرمنية» . وقد ركز مارك فى تقريره على الانقسامات داخل المجتمع اليهودى المحلى إزاء تسمية «الإبادة الأرمنية» . وفى هذا الخصوص ، اعتمدت الحكومة الإسرائيلية نسخة الأحداث «الكاذبة» التى اعتمدتها إسطنبول . لكن كثيراً من اليهود ، داخل إسرائيل وخارجها ، أصرّوا فى شجاعة على أن ما حدث يُشكل «إبادة» . بيد أن رئيس التحرير دوجلاس فرانتز استبعد تقرير آراكس لأنه «عبّر عن رأيه فى المسألة» ، وهو ما أظهر «تعارضاً فى المصالح» .

نفس الموضوع أوكل من جديد إلى ريتش سايمون مراسل «واشنطن بوست» الذى ركز على محاولة تركيا إعاقة الكونجرس الأمريكى عن الاعتراف بـ «الإبادة الأرمنية» . وقد نُشرت هذه القصة تحت عنوان «مازال قرار الإبادة غير مؤكد نهائياً» . هذا ، وقد تحفظ المسئولون التنفيذيون فى صحيفة «إل إيه تايمز» عن الموضوع ، رافضين إجراء المقابلات . وتجدر الإشارة إلى أن فرانتز أقر على موقع إلكترونى أنه «أوقف» قصة أراكس نتيجة للمخاوف التى تجسّدت بقيام صحفى بـ «التعبير عن رأيه الشخصى فى موضوع عام علناً» . يا للهول !تُشكل الحقيقة خطراً على صحيفة «إل إيه تايمز» .

وتحت عنوان «أحدهم ينكر الإبادة الأرمنية فى البيت الأبيض» ، انتقد فيسك فى ١٠ أكتوبر ٢٠٠٧ بضراوة ومرارة موقف الرئيس الأمريكى چورچ دبليو بوش إزاء الاعتراف بـ «الإبادة الأرمنية» . وقد وصفه فيسك بـ «ملك الحروب الصليبية» لإدعائه أنه يشن صراعاً أبدياً على «الإرهاب فى العالم» بالنيابة عنا . وحسب الكاتب البريطانى المخضرم : فى الواقع ، اتضح أن بوش جبان ، إذ قامت مجموعة من الشعب التركى وحملة علاقات عامة متنوعة بقيمة مليون دولار بالنيابة عن ناكرى الإبادة الأرمنية بتحويل الأسد إلى حمل . وفى هذا الشأن ، طالب فيسك الرئيس الأمريكى بالرجوع إلى الصور والتقارير الدبلوماسية والمستندات العثمانية الأصلية والمحاكمة العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى للوقوف على صحة الإبادة التى

اقترفتها حكومة تركيا الفتاة العثمانية بحق الأرمن ١٩١٥ ـ ١٩١٦ .

ولكن ، والكلام لفيسك ، يمنعنا الأتراك من الاعتراف بذلك ، إذ أنهم ابتزوا السلطات الغربية وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية لتتملق لإنكارهم المخزى . ويشمل هذا الإنكار «الكذبة» التى تتجسّد فى مقتل الأرمن أثناء «حرب أهلية» ، وبأنهم تعاونوا مع الروس أعداء الدولة العثمانية ، وتم قتل القليل من أعداد الأرمن «المزعومة» ، والفتك بالمسلمين الأتراك قدر الأرمن . ويتعجب فيسك بمرارة أن هذه الأكاذيب لقيت دعم الرئيس الأمريكى بوش وكذا الكونجرس الأمريكى ، وحسب بوش : «نأسف جميعنا لمعاناة الشعب الأرمنى ، لكن هذا القرار (الخاص بالاعتراف الأمريكى بالإبادة) ليس الحل المناسب لجرائم القتل التاريخية الهائلة . فتنفيذ هذا القرار سيضر بعلاقاتنا مع حليف أساسى فى منظمة حلف شمال الأطلسى (ناتو) وفى الحرب العالمية على الإرهاب» .

وفى نهاية هذا المقال المهم ، بلّور الكاتب الأريب المشهد بامتياز قائلاً : لا تقلقوا . إذا زرعت تركيا الخوف فى نفس بوش ، فهو مازال مستعداً لزعزعة قفص «الفرس» الأقوياء . ونبهنا إلى ضرورة اهتمام العالم بمنع إيران من اكتساب المعرفة لصناعة الأسلحة النووية إذا كنا مهتمين بمنع الحرب العالمية الثالثة . يا له من كلام فارغ ـ حسب فيسك ـ ليس لدى بوش ما يكفى من الشجاعة للاعتراف بالحقيقة عن الحرب العالمية الأولى . هذا هو بوضوح قائد العالم الغربى الذى سيحمينا من الإرهاب !!!

رمـــــــــوز

شارل أزنافور

يُعد شارل أزنافور من أبرز المطربين العالميين . وهو مغنى ، كاتب أغانى ، ممثل . فرنسى من أصل أرمنى . ولد فى ٢٢ مايو ١٩٢٣ . وفى الثانية عشرة من عمره ، بدأ مشواره الفنى الطويل بالغناء فى فرقة مدرسته الموسيقية . ورغم أنه مارس عدة مهن فى مطلع شبابه ، ولكنه التحق بإحدى الفرق الفرنسية المتجولة التى كانت تُقدم أعمالاً مسرحية مصحوبة بالغناء والرقص . وانتسب إلى معهد التمثيل بباريس ، وأنشأ مع بيير روش نادياً لتعليم الرقص والغناء والتمثيل . ومنذ مطلع حياته الفنية ، اشترك مع الراقصة الفرنسية «ميستنجيت» فى عروضها الغنائية المسرحية ، وكذا مع المطربة الفرنسية المشهورة اديث بياف . وفى نفس الوقت ، ألّف أغانى له ولمجموعة من المطربين الفرنسيين . ويُعتبر صوت أزنافوريان من أبرز وأحلى الأصوات الغنائية فى فرنسا ، ويمتاز ببحة خاصة وبالشجن والمعاناة لاسيما فى أغانيه المشهورة من قبيل «الطفولة» و «الحرب» و «الحب» . وجدير بالتسجيل أنه يأتى على رأس أعلى المطربين مبيعاً فى السوق العالمية ، وله شهرة واسعة فى جميع أنحاء العالم . والمعروف عن أزنافوريان أنه يعتز بشدة بأصله الأرمنى ويفتخر به أينما كان وفى كل زمان .

بريطانيا وقضية الأرمن فى الدولة العثمانية
١٨٧٨ ـ ١٨٩٦

إعداد : على ثابت صبرى

عرض : أحمد محمد إنبيوه

بتقدير «مرضى» مع التوصية بطبع الرسالة على نفقة الجامعة وتبادلها مع الجامعات المصرية والعربية ، حصل الباحث على ثابت صبرى فى ١٠ نوفمبر ٢٠١٢ ، على درجة الماچستير ـ نظام الساعات المعتمدة ـ من قسم التاريخ ـ فرع التاريخ الحديث والمعاصر ـ بكلية الآداب جامعة الإسكندرية تحت إشراف أ . د . جمال محمود حجر أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بآداب الإسكندرية ، د . محمد رفعت الإمام أستاذ مساعد التاريخ الحديث والمعاصر بآداب دمنهور . وقد تشكلت لجنة المناقشة والحكم على الرسالة من أ . د . فاروق عثمان أباظة أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بآداب الإسكندرية رئيساً ومناقشاً ، أ . د . وجيه عبد الصادق عتيق أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بآداب القاهرة مناقشاً .

وقد حوت الرسالة أربعة فصول تسبقها تمهيد وتنهيها خاتمة ، جاء التمهيد بعنوان : موقف بريطانيا تجاه الأرمن فى الدولة العثمانية ، والفصل الأول بعنوان : بريطانيا وتدويل القضية الأرمنية فى الدولة العثمانية ، والفصل الثانى بعنوان : المساعى البريطانية لتنفيذ الإصلاحات الأرمنية ، والفصل الثالث بعنوان بريطانيا والحركة الأرمنية الثورية ، والفصل الرابع بعنوان : بريطانيا والمذابح الأرمنية (١٨٩٤ ـ ١٨٩٦) . وفيما يلى أبرز نتائج الدراسة وهيكلها العام .

شهد القرن التاسع عشر تحولات شديدة فى ميزان القوى الدولية ، وخصوصاً النصف الثانى من ذات القرن ، حيث بدت ملامح انهيار الدولة العثمانية ، وبات هذا واضحاً من خلال الانسلاخات المتتالية عن كيان الدولة فيما عُرف بالمسألة الشرقية ، بل أكثر من هذا ، أصبحت الأراضى التى تضمها الدولة مسرحاً للصراع الدولى أو بالأحرى الصراع البريطانى الروسى ، فبريطانيا لها مصلحة فى بقاء الكيان العثمانى كدولة حاجزة للتطلعات الروسية ، وتأميناً لاتصالاتها مع الهند ـ أكبر مستعمراتها على الإطلاق ـ ، وروسيا هى أيضاً لها مآربها فى الوصول للمياه الدافئة عبر الدولة العثمانية .

ومع انفجار قضايا القوميات داخل الفضاء العثمانى ، ظهرت القضية الأرمنية فى شرقى الأناضول ـ الذى يعتبره الأتراك جزءاً لا يتجزأ من وطنهم الأصلى ـ لتُربك حسابات الإدارة العثمانية ، وتفتح منفذاً خطيراً للتدخلات الأوربية . بيد أن الدولة العثمانية تتحمل جزءاً كبيراً من وصول قضايا القوميات عموماً والأرمن على وجه الخصوص إلى حد هز كيانها .

فقد كان أمام السلطان عبد الحميد الثانى (١٨٧٦ ـ ١٩٠٩) فرصة لإنهاء هذه الانقسامات التى ضربت كيان الدولة فى الصميم ، حيث كان الدستور العثمانى (المشروطية) ـ آخر تطورات عصر التنظيمات ـ أفضل السبل لخروج الدولة من مأزقها ، لأن الدستور كان يضمن مساواة كل مواطنى الدولة العثمانية فيما عُرف بالعثمنة ، لكن السلطان أوقف العمل بالدستور بعد إعلانه بوقت وجيز مما أشعل فتيل الأزمة داخل الفضاء العثمانى ، وعلى غرار ذلك تحولت أزمة الأرمن فى الدولة العثمانية من شأن محلى إلى شأن شبه دولى ، اكتملت صورته فى مؤتمر برلين ١٨٧٨ .

وفى ذات التوقيت ، لم تجد بريطانيا أفضل من قضية الأرمن سبيلاً للتدخل فى الشئون العثمانية هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى مراقبة أية تطورات على الجبهة الروسية عن قرب . وتجدر الإشارة إلى أن الدراسة حاولت الكشف عن كيفية توظيف بريطانيا لقضية الأرمن فى خدمة مصالحها على حساب الدولة العثمانية؟ وكذلك ما هى الإجراءات التى اتخذتها نحو حل هذه القضية إذا كانت تُريد حلها بالفعل؟ !

لقد التقطت بريطانيا القضية الأرمنية خلال تسويات الحرب الروسية العثمانية ١٨٧٧ـ ١٨٧٨ ، والتى تمخض عنها معاهدة سان ستيفانو المبرمة فى ٣ مارس ١٨٧٨ ، حيث حصل الأرمن على المادة (١٦) الناصة على : «أن خروج جنود روسيا من إرمنستان وإرجاعها للدولة العثمانية يُمكن أن ينجم عنه المناقشة والاختلاف فيما بينهم ؛ فلهذا يتعهد الباب العالى بإجراء الإصلاحات على حسب الاحتياجات المحلية فى الولايات التى يسكنها الأرمن ، وتأمين المسيحيين من تعدى الچراكسة» .

بيد أن بريطانيا رفضت هذه المعاهدة ، لتعارضها مع مصالحها ، لذلك رأت فى معاهدة سان ستيفانو بأنها ضربة لتوازن القوى فى أوربا ، كما أنها تُنذر بسقوط الدولة العثمانية ، ولذا ، فقد رفعت شعار الحفاظ على الكيان العثمانى من أجل وقف التوسعات الروسية المتمخضة عن الحرب آنفة الإشارة .

ووضحت أهمية الولايات الأرمنية العثمانية بالنسبة لبريطانيا من خلال أسباب الاعتراض التى أبداها السير لايارد ـ سفير بريطانيا فى الأستانة ـ على احتلال روسيا لهذه الولايات لوزير خارجية بريطانيا وتمثلت فى :

١ ـ سهولة التأثير على مسلمى آسيا الوسطى والتى قد تسرى عدواه إلى مسلمى الهند .

٢ ـ فتح الطريق أمام روسيا لمزيد من التوسعات فى آسيا الوسطى .

٣ ـ خلق تهديدات مباشرة للاتصال مع الهند .

٤ ـ التأثير على التجارة البريطانية التى تمر عبر الولايات الست الأرمنية مما يُسهل الأمر على روسيا فى فرض ضرائب على تلك التجارة .

وبهذا رأى لايارد أن تطور الموقف سوف يمس مصالح بريطانيا بشكل مباشر ويُعَرِّضها للخطر فى الشرق ، مما يستدعى ضرورة التحرك المباشر لتأمين المصالح البريطانية وتحييد روسيا لتلك المنطقة .

وعطفاً على ما سبق ، فقد نجحت الضغوط البريطانية فى توقيع اتفاق بريطانى روسى فى ٣٠ مايو ١٨٧٨ بموجبه تواجدت بريطانيا بشكل فعال فى مجريات القضية الأرمنية حيث نص على : «الأمور المتعلقة بأرمينية الغربية ـ الولايات الست ـ لا تخص روسيا وحدها والتى أقرتها المعاهدة الابتدائية سان ستيفانو ، بل تشمل بريطانيا أيضاً» . ونتج عن هذا الاتفاق أن سارت بريطانيا جنباً بجنب مع روسيا فى أية أمور تخص الأرمن العثمانيين حرصاً على تأمين مصالحها فى تلك المنطقة .

وعلى خط متواز سعت بريطانيا للحصول على موقع يُوازى الوجود الروسى فى الولايات الأرمنية ، فلم تجد أفضل من جزيرة قبرص ، ولهذا ، أبرمت معاهدة دفاعية مع الدولة العثمانية فى ٤ يونية ١٨٧٨ ، حصلت بريطانيا بموجبها على جزيرة قبرص ، والتى أصبحت فيما بعد موقعاً خطيراً استغلته لمراقبة الأحداث فى مصر .

وعلى أية حال ، عُقد مؤتمر برلين بعد مساعى القوى الكبرى فى الفترة من ١٣ يونية حتى ١٣ يولية ١٨٧٨ ، وفيه استطاعت بريطانيا تقليل المكاسب الروسية بشكل كبير ، وكذلك الحفاظ على الدولة إلى حد ما ، و تعويض الأرمن عن المادة (١٦) ، بمادة عائمة خلا منها قوة التنفيذ التى كانت فى سان ستيفانو ، حيث وافق المؤتمرين على اقتراح ممثل بريطانيا بشأن القضية الأرمنية الذى تبلور فى المادة (١٦) والتى تنص على أن : «يتعهد الباب العالى ـ وبدون أى تأخير ـ بإدخال التحسينات والإصلاحات التى تستلزمها المتطلبات المحلية فى الولايات التى يقطنها الأرمن ، وضمان أمنهم تجاه الچراكسة والأكراد ، كما يتعين على الباب العالى من حين لآخر أن يُحيط القوى الكبرى ـ التى ستقوم بالإشراف على تنفيذ الإصلاحات ـ علماً بأى أمر يتعلق بذلك» . كما أصرت بريطانيا على إخلاء الولايات الأرمنية العثمانية من القوات الروسية ، ومن ثم ، عززت بريطانيا مصالحها شرقى الأناضول ، وفوتت على روسيا أية ذريعة للتدخل فى الدولة العثمانية .

أما عن الإجراءات التى اتخذتها بريطانيا نحو حل القضية الأرمنية ، ففى أعقاب مؤتمر برلين صعد إلى سدة الوزراء فى بريطانيا السير جلادستون ـ المعروف بتعاطفه مع قضايا المسيحيين فى الدولة العثمانية ـ ، وعلى إثر ذلك بدأت الحكومة البريطانية تتخذ سياسة نشطة تجاه القضية الأرمنية ، فتم تكليف لايارد سفيرها فى الأستانة بالسعى فوراً ودون إبطاء للحصول على التزام السلطان العثمانى بإصلاح أوضاع شرقى الأناضول ، ثم عاودت الإدارة البريطانية عن طريق سالسبرى وزير خارجيتها للضغط على الباب العالى من أجل تطبيق الإصلاحات الأرمنية التى أقرها مؤتمر برلين . وتوالت المشاريع البريطانية لتنفيذ الاصلاحات ، وعلى خط متواز كانت الوعود التى قطعها الباب العالى ما هى إلا لمراوغة القوى الأوربية وخصوصاً بريطانيا .

وجدير بالتسجيل بأن التحركات البريطانية لم تتوقف عند هذا الحد ، بل واصلت فى ظل شراكة أوربية ، فقد أرسل سفراء الدول الأوربية الست بالأستانة (بريطانيا ـ روسيا ـ فرنسا ـ ألمانيا ـ إيطاليا ـ النمسا والمجر) مذكرة للسلطان عبد الحميد الثانى فى ١١ يونية ١٨٨٠ طالبوا فيها بتطبيق المادة (٦١) نظراً لتدهور الأوضاع بشكل سئ فى الولايات الأرمنية .

وعلى هذا النحو ، باءت المحاولات البريطانية لتنفيذ الإصلاحات الأرمنية بالفشل فى هذا التوقيت ، لأن بريطانيا أولت مصالحها اهتماماً كبيراً على حساب الأرمن وقضيتهم ، وخصوصاً أن هذا هو عُرف العلاقات الدولية المصلحة أولاً وأخيراً ، بذلك أصبح الأرمن بين أحد أمرين ، إما أن تضيع قضيتهم فى غمار المصلحة البريطانية و التسويف العثمانى ، أو يقوموا بعمل يُجدد دماء قضيتهم ويجعلها فى المقدمة ، وخاصة أن هناك نماذج تكاد تكون ناجحة إلى حد ما فى الحصول على الحكم الذاتى أمثال (بلغاريا ـ الجبل الأسود ـ صربيا) ، كل هذا سيتمخض عنه تعزيز الروح

الثورية لدى الأرمن ضد الإدارة العثمانية .

ووصلاً لما سبق ، تصاعد المد الثورى الأرمنى ضد الإدارة العثمانية ، وتجسد ذلك فى ظهور الجمعيات السرية وتطورها لكيانات سياسية منظمة مُمثلة فى ثلاثة أحزاب (الأرميناجان والهنشاك والطاشناق) ، ونظراً لأن الحركة الثورية قد اختمرت خارج أرمينية العثمانية ـ ما عدا الأرميناجان ـ فتأثرت بحركة العمال فى روسيا ، وُصبغت بصبغة اشتراكية ، وهذا لايتفق مع سياسة بريطانيا أو توجهها ، و لهذا ، حاولت الإدارة البريطانية رصد تحركات الأرمن الروس فى تفليس ـ منبع الثورة الأرمنية ـ لمحاولة إيجاد آلية لمواجهة أية تأثيرات على الأرمن العثمانيين . مما جعل الحركة الأرمنية الثورية شوكة فى حلق المصالح البريطانية ذات التوجهات الرأسمالية وكذلك الحكومة القيصرية صاحبة ذات التوجه ، ففكرة اتحاد الأرمن الروس مع الأرمن العثمانيين ، قد تُؤثر بشكل سلبى على المصالح البريطانية والروسية ، فعلمت القوتان على إجهاض الثورة الأرمنية ، بل أكثر من هذا ، بدأت بريطانيا تبحث عن آلية سياسية تُواجه هذا المد الاشتراكى وتُحقق قبولاً لدى الأرمن ، فتأسست الجمعية الإنجليزية الأرمنية عام ١٨٨٨ لتُمثل التوجهات السياسية البريطانية إزاء الملف الأرمنى .

كذلك تمخض عن توتر العلاقات الدولية وبُعد القوى الأوربية عن قضية الإصلاحات الأرمنية ، وخصوصاً بريطانياً ، ترك الأرمن وحدهم فى مواجهة الإدارة العثمانية ، مما جعل الأمور تتفاقم حتى وصلت لمنعطف خطير تبلور فى مذابح عامّى ١٨٩٤ـ ١٨٩٦ .

وعلى خط متواز ، أجبرت المذابح القوى الأوربية على العودة لفتح ملف الإصلاحات الأرمنية ، فقدمت بريطانيا وفرنسا وروسيا مذكرة للباب العالى فى ١١ مايو ١٨٩٥ يُطالبون فيها القيام بإجراءات محددة فى الولايات الست خاصة بوضع آليات من شأنها إنهاء حالة القمع والتوتر ، والعمل على استقرار الأرمن العثمانيين .

وفى أعقاب حادثة البنك العثمانى عام ١٨٩٦ تحركت الإداراة البريطانية بشكل سريع ، لإيجاد آلية أوربية جماعية لخلع السلطان عبد الحميد الثانى ، فحاولت الملكة فكتوريا الضغط على القيصر الروسى نيكولاس الثانى (١٨٩٤ـ ١٩١٧) ، لكنه رأى عدم جدوى هذا القرار ، لأن من مصلحة روسيا أن تستمر الأمور كما هى ، حيث كانت مشغولة بطموحاتها ـ التوسعات فى آسيا الوسطى ـ أضف إلى ذلك أن روسيا منذ إيجناتييف لم تكن تتمتع بمثل هذا التأثير القوى فى الأستانة ، وسيكون من الحماقة التخلى عن عبد الحميد ، ووضع حاكم آخر على العرش العثمانى حسب الأهواء البريطانية .

وخلاصة القول : بعد وصول القضية الأرمنية فى الدولة العثمانية إلى منعطف خطير ، تمخض عنه توجيه الانتقادات والاتهامات الأوربية إلى الإدارة العثمانية بوصفها المسئولة عن تأزم الموقف ووصوله لحد المذابح ، بيد أن أطراف اللعبة كلهم اشتركوا فيها ، فبريطانيا قبضت على الملف الأرمنى لتأمين مصالحها سواء فى جزيرة قبرص أو مصر ، حتى تضمن تأمين طريقها إلى الهند ، أما الدولة العثمانية فليس مطروحاً فى سياستها التنازل عن شرقى الأناضول للأرمن لإقامة حكم ذاتى ، لذا ، ناهضت الدولة الأرمن بكل السُبل حتى وصلت لحد المذابح ، أما الأرمن فقد راهنوا على الدول الأوربية من أجل تحقيق أحلامهم دون أن يعرفوا ما هى المقاصد الأوربية الحقيقية ، مما ترتب عليه اصطدامهم المباشر بالنظام العثمانى .

أدب

ضريبـــة اللباقـــة
التاجـر ـ بارطوغيميـوس أغـا

ترجمة : د . نورا أريسيان

تأليف : هاجوب بارونيان

صدر عن دارأطلس بدمشق الترجمة العربية لكتاب «ضريبة اللباقة» ؛ تأليف هاجوب بارونيان (١٨٤٣ ـ ١٨٩١) وترجمة الباحثة الأرمنية السورية د . نورا أريسيان . ويُعد المؤلف من رواد الأدب والمسرح الساخر الأرمنى . ومن أبرز أعماله : المتسولون الشرفاء ، نزهة فى أحياء الأستانة ، دفتر الأبله ، طبيب الأسنان الشرقى، خادم ومعلمان ، المتملق ، الأخ بغداسار . وقد كتب «ضريبة اللباقة» فى عام ١٨٨٦ بالأستانة ، وهى عبارة عن قصص مسرحية ساخرة ، شخصياتها ضحايا الغش ، وهم محكومون بالقواعد الزائفة للأدب واللباقة . ويُسعد «أريك» أن تُقدم على صفحاتها بعضاً من إبداعيات بارونيان الساخرة .

التاجـر

أنت تاجر ، وأنا لا ألومك على كونكَ تاجراً لأنكَ لستَ المذنب بل الذى قادكَ إلى التجارة .

ولا أهينكَ ، بل فليسمح لى وأتحدث بإنصاف ، أنا أتصرف معكَ كما لو كنتَ اتصرف مع نّشال ، أى عندما أتعامل معكَ آخذ حذرى كى لا أتغش ، ليس بأخذ النصيحة من العبارة المشهورة أن (التجارة هى فن الغش) ، بل مستنداً على التجارب الشخصية التى تُعطينى الجرأة كى اعترف بصوت عالى اليوم أنه من بين مائة تاجر تعرفتُ على تاجرين اثنين فقط لا يكذبان . ولكن أعلم أن التاجرين الاثنين لا يتكلمان أبداً .

قلنا إنكَ تاجر ولا داعى للخجل . تذهب إلى محلكَ فى صباحية ربنا وتُقيم مصيدتك وتُهيئ كل شئ كى لا تهرب فريستكَ التى تنتظرها ساعة بساعة . أنتَ تاجر كبير ، ولا داعى للقول إنكَ غشاش كبير ، لذلك تنزوى فى زاوية محلكَ وعيونكَ تُحدق بالباب من حيث ستأتى الفريسة .

تأتى ساعات وتذهب وتنزلق وها هو زبون يظهر أمام الباب . تقف مباشرة وتركض نحوه لتستقبل الزبون وتُجلسه على كرسيك . تُقدم له القهوة وتتملق وتُلاطفه وتُحيط به بكثير من الاحترام وتكذب لمدة ساعة كاملة وأما كاتبكَ ، فيُضيف على أكاذيبك ويُؤكد بأكاذيب أخرى .

زبونكَ دسم بعض الشئ ، سوف يشترى بمبلغ ثلاثة أو أربعة آلاف ليرة ذهب ، ويُريد نماذج لبضاعة أخرى ، تُريه البضاعة وأنتَ تقرأ عليها المزيد من الإطراء ، بقى أن تكلل بضاعتك بأكاليل من الغار .

ـ هذه البضاعة غير موجودة فى السوق ، لقد أوصينا

عليها خصيصاً من أجلكَ .

ويردف كاتبكَ حيث تكون اتفقت معه .

- إنها بضاعة فاخرة .

- بضاعة رائعة ، لا مثيل لها .

- ياليتنا نربح رزماً من الآلاف من هذه البضاعة .

- إنها بضاعة لن تجد توأمها .

- إنها بضاعة حتى لو غسلت ألف مرة لا تُغير عقيدتها .

- هذه البضاعة صاحبة مبدأ .

- بالتأكيد صاحبة مبدأ ، لأنها لا تتخرق أبداً .

- يمكن استعمالها مائة سنة .

- ماذا تقول يا سيدى ؟ مائة سنة . . مائة وخمسين سنة ، مائتى سنة ، ثلاثمائة سنة .

- أقيموا ضريحاً على هذه البضاعة يا أيها الأغنياء .

- إنها بضاعة فاخرة .

- ونحن لا نُرى هذه البضاعة لكل الناس .

- لقد كشفنا عن هذه البضاعة لكم لكى تتعودوا على محلنا .

- اعذرونا ، نرجو منكَ ألا تقول لأحد إنكَ اشتريت هذه البضاعة من محلنا .

وبآلاف الكلمات مثل التى قيلت من قبلك ومن قبل كاتبك ، تنجحون بترويج البضاعةَ . ويأتى دَور المساومة .

- سأقول سعراً نهائياً .

- إنها عادة أفندينا أن يقول السعر النهائى .

- أنا لا استسيغ المساومة .

- أفندينا لا يستسيغ المساومة بتاتاً .

- يُمكن أن تكون المساومة أمراً جيداً لكن هى تتعارض مع طبيعتى .

- المساومة تتعارض مع طبيعة أفندينا .

- لا أحب كثر الكلام .

- أفندينا لا يُحب كثر الكلام .

- بكلمة واحدة ، ستدفع من أجل هذه البضاعة ثلاثة آلاف وثمانمائة وربع ليرة ذهب ومجيديتين .

- لقد أخطأت يا أفندى ، أخطأت ، البضاعة كلفتنا أربعة آلاف ليرة ذهب .

- ماذا تقول ؟

- أخطأت فى الحساب يا أفندى ، سوف أريكَ حسابات تلك البضاعة التى استلمناها من المشغل من أوربا .

ويأتى الكاتب بكشف حسابات مزور ويرميه أمامك .

وأنتَ وكأنكَ تُدققها وتعترف بخطأك .

- لقد أخطأت بالحساب .

- كنت ستقول أربعة آلاف ومائة وربع ليرة .

- مهما كان ، لقد لفظتها مرة ، وأنا لا أرجع بكلامى .

ويتظاهر الكاتب بالغضب ، ويذهب إلى طاولته متمتماً .

- نخسر ثلاثمائة ليرة لكى لا يرجع بكلامه .

- نعم لقد لفظتها ، تدفع ذلك المبلغ وتأخذ البضاعة .

يتذمر الكاتب ويقول :

- الأغبياء أمثالنا يغشون كل يوم ، لو لم أكن كاتباً فى هذا المحل لكنت أتيت دائماً إلى هنا لشراء البضائع .

فيجيب الزبون :

ـ يا أفندى ، أنا أيضاً سأعطيك سعراً نهائياً ، سوف أدفع ثلاثة آلاف وسبعمائة وعشرين ليرة من أجل هذه البضاعة .

تم صيد الفريسة . تربح خمسمائة ليرة وتسعد لنجاحكَ ، ولكن احتمال التسبب بالشك من جهة ، وشناعة انتزاع عدة ليرات ذهب أكثر من جهة أخرى ، تُلزمكَ أن تُجيب زبونكَ باندهاش وتقول :

ـ هل أنت ولد ، ألم تتعرف على البضاعة يا أخى ؟

يُتمتم الكاتب :

ـ هذه البضاعة ليست للعرض على الجميع .

ـ اعذرونا نحن لسنا هنا من أجل أن نغش الناس .

يقول الزبون :

ـ أعطيك عشرين ليرة أكثر .

ـ وهل نتحدث عن عشرين ليرة ذهب ؟ إن أردتَ خذ البضاعة ولا تدفع شيئاً ، لكن ليست المسألة كذلكَ ، عليكَ أن تُعطى قيمة للبضاعة .

ـ سأعطيكَ عشر ليرات أخرى .

لقد وصلت ساعة الاتفاق وأخذ الليرات الذهب ، وبذلك تبدأ خطبة قصيرة ولكن مؤثرة حيث ترضى بالكثير والكثير من التنازلات ، وفى تلك اللحظة تماماً يدخل إلى محلكَ رجل قصير ولكنه ذو نفوذ .

ـ المسيح قام .

ـ حقاً قام .

ـ كيف حالكم ، بخير .

ـ الحمد لله ، ينوفك أغا .

ـ كيف حال السيدة ؟

ـ جيدة .

ـ الآنسات بخير ؟

ـ بخير .

ـ وكيف ابنك ؟

ـ جيد جداً .

ـ والدتكَ ؟

ـ لا بأس .

ـ جدتكَ ؟

ـ مرتاحة .

ـ ماذا يفعل صهركَ ؟

ـ الذى يفعله .

ـ هل هو عندكم ؟

ـ لا .

ـ أنت عند صهركم .

ـ لا .

ـ أين أنتم إذاً ؟

ـ فى بيتنا .

ـ حسناً حسناً ، أطلب لى قهوة فأنا تعبان جداً .

ـ حسناً .

ـ أتدرى أن كلبتنا ولدت الليلة الماضية .

ـ نعم ، تفعل ذلك .

ـ سوف نُعطيكم واحداً .

ـ أشكركَ .

ـ لكن بعد أن تكبر قليلاً .

ـ جيد .

يتحرك الزبون تأهباً للذهاب ، تُجيبه بالإشارات ولكن اللباقة لا تسمح أن تطرد ينوفك أغا .

ـ وكم هى جميلة الجروات !

ـ نعم .
ـ كنت سأسألكَ كيف تُربيها . أمهم مريضة وضعيفة ليس لديها الحليب . . قالوا فى البيت أن نأخذ البيبرون لنعطيها الحليب .
ـ نعم .
ـ وهل يصح ؟
ـ لا أعرف .
ـ هل يُوجد فى حارتكم كلباً ليأتى ويرعى الجرو ؟ أرجوك يا قلبى فلنعمل لننقذ هؤلاء المساكين . لنسأل هنا وهناك ونبحث عن كلب .
ـ حسناً ، نبحث .
ـ لنبحث الآن .
ـ عندى شغل الآن ، مستحيل .
ـ وهذا شغل أيضاً ، إنه ثواب .
ـ اليوم ليس لدىّ وقت لأحك رأسى .
ـ ومتى نبحث ؟
ـ عندى أعمال ضرورية ، حتى ليس لدىّ وقت أقرر فيه متى ؟
ـ إنها ليست مضيعة للوقت ، إنها . . .
ـ عندى شغل ينوفك أغا .
ـ إنه أمر لا يُؤجل . سوف أعطيكَ واحداً منهم .
يقول الزبون :
ـ سوف أعود بعد ربع ساعة . ويخرج من المحل .
ـ فتتحسر وحدك :
ـ أوف أوف أوف .
ـ عليكَ أن ترى الجرو ، إنهم مثل الشياطين .
ـ نعم .
ـ لنُقرر ونُنهى الأمر .
ـ ألا يصح البيبرون ؟
ـ لا يصح .
ـ يجب العثور على كلب .
ـ نعم .
ـ لا يُوجد حل آخر ؟
ـ لا يُوجد .
ـ وهل هناك حل ؟
ـ لا .
ـ إن كان هناك ، قل . . .
ـ لا يُوجد ، ينوفك أغا ، لا يُوجد ، لا يُوجد .
ـ هل غضبت ؟
ـ لم أغضب ، ولكن . . .
ـ لا يحق لكَ أن تغضب ، أنا لستُ خادمكَ ، ولا انتظر أى ربح منكَ ، شربت القهوة ، إن أردت أدفعُ لك قيمتها وأهلاً وسهلاً .
ـ لا .
ـ أنا أعلم إنكَ تُحب الكلاب . أردتُ أن أهديكَ واحداً ، وبدلاً من أن تشكرنى ترفع من شأنك .
ـ لا ، ينوفك أغا .
ـ ليس كل طير يُؤكل لحمه ، تعلم هذه إن كنتَ لا تعرفها .
ويخرج ينوفك أغا غاضباً .

وأنتَ تنتظر عودة زبونك .

يعود زبونك بعد ثلاث ساعات .

- اليوم لا أملك المال ، سوف آتى بعد عدة أيام لاشترى البضاعة ، إلى اللقاء .

- تعال ، أين تذهب ؟ لدىّ كلمة . . انظر إلىّ . . يا أغا . . يا أفندى . . يا صديق . . ألن تأتى ؟ تعال واذهب من جديد . . لن نأكلكَ .

وهل هو مجنون ليعود ؟

وللأسف تشعر أن زبونكَ اتفق مع تاجر آخر وفى ظروف مُرضية أكثر . تغضب من كاتبك قليلاً ثم تبدأ بلف الشتائم على رأس ينوفك أغا .

لنَعُد الآن إلى مشهد آخر . . .

* * *

بارطوغيميوس أغا

هل تعرفون بارطوغيميوس أغا ؟

إنه رجل غريب .

تذهب راكضاً لتفتح محلكَ فى الصباح وتكون على رأس عملك فيظهر رجل أمامك ويُحييك على بعد كيلومتر واحد يتأبطكَ ويقول :

- وأنا أيضاً كنتُ أريد رؤيتكَ ، لنمشى قليلاً ، لدىّ حديث معكَ .

ذلك الرجل هو بارطوغيميوس أغا (ليبقى الحديث بيننا ولا يعلم بارطوغيميوس أغا) .

يخطو خطواته معكَ على أن يسألكَ عن حالكَ ، وها هو يتحدث مع صديق آخر التقى به :

- لقد أنجزتُها كما قلت لى لكن لم أنجح .

- يبدو إنكَ ارتكبت خطأ ما على الأكيد .

- لا ، شويت السمك ووضعته فى الملح والليمون ، إنما أضحت شيئاً لا طعم له .

- شئ غريب .

- أرجوكَ أن تأتى يوماً وتحضّرها بنفسك ، أحضر زوجتكَ معكَ لنمضى وقتاً معاً . كيف حال السيدة أبخير ؟

- جيدة جداً .

- أحييها على وجه الخصوص .

- على رأسى .

- متى ستلد ؟

- بعد شهر ، إن شاء اللّه .

- يبدو أنه ولد .

- إنه غير واضح .

- اللّه قبل الولد . قل لزوجتكَ ألا تقعد ، يجب أن تتحرك باستمرار ، أن تمشى وتمشى .

- أشكركَ ، بخاطرك .

يعود إليكَ بارطوغيميوس أغا وبعد أن يسألكَ من جديد عن حالك ويدخل محل اللحم .

- فى الحقيقة اللحمة التى أعطيتنى إياها آخر مرة لا تُؤكل .

- أعطيتكَ من اللحمة الفاخرة .

- خطأ ، قالت السيدة إن اللحمة هذه المرة سيئة ولا طعم لها ، أرجوكَ أن تنتبه فى المرة القادمة ، أنا زبونكَ منذ عشرين سنة ولا يليق أن تُعطينى لحماً فاسداً لأنى دائماً أدفع لكَ مسبقاً .

- سأنتبه فى المرة القادمة .

- يلتفت إليك بارطوغيميوس أغا مرة أخرى .

ـ ماذا يوجد ؟ ماذا ؟ ألن تتكلم ؟ . . .

ويظهر أمامه رجل طويل القامة ويبدأ بالتحدث معه .

ـ لم أنس بعد تلك الليلة .

ـ وأنا أيضاً لم أنس .

ـ كانت الجعة فاخرة .

ـ نعم .

ـ واللحمة طيبة .

ـ مفتخرة .

ـ شربت عشرين كأساً فى تلك الليلة .

ـ صحتين .

ـ لنلتق أيضاً فى الأسبوع القادم فى بيت فيليب .

ـ لنلتق ، إلى اللقاء .

ـ لنحضر المقبلات من قبل .

ـ يحضر ، إلى اللقاء .

ـ لكن لا نريد ُغرباء بيننا .

ـ حسن ، بخاطرك .

ـ لنكن وحدنا .

ـ نعم ، مع السلامة .

ـ عندما يكون هناك جمع لا نستمتع .

ـ إنه كذلك ، مع السلامة .

ـ نلتقى .

يتوجه بارطوغيميوس أغا بحديثه إليكَ من جديد .

ـ ماذا تفعل ؟ لنر .

ـ لا شئ .

ـ لا نراكَ أبداً يا أخى ، أسأل عنكَ هنا وهناك و . . .

وفى تلك الأثناء فجأة يرى سيدة .

ـ كيف حالكَ سيدتى ، بخير ؟

ـ الحمد لله ، بارطوغيميوس أغا ، كيف حال جنابك ؟

ـ هكذا . . . كيف كانت القبعة ؟

ـ أية قبعة ؟

ـ الأسبوع الماضى كنت ُتساومين على قبعة ، ألم يعطك إياها بمائة وعشرين ؟

ـ وكيف تتذكر بارطوغيميوس أغا ؟ لقد أخذتها بتسعين .

ـ لكن كانت قبعة جيدة ، لقد كانت تليق بك سيدتى وكنتِ تبدين كأنك صبية .

ـ أنت ظريف بارطوغيميوس أغا ، وهل بقى صباى؟

ـ أنا لا أبدلك بألف صبية .

ـ الله .

ـ كيف حال البيت ؟ بخير ؟ ماذا يفعل ابنكَ ؟ وهل مايزال ينام فور أكله للغذاء ؟

ـ وماذا عساه يفعل ؟ يأتى تعبان .

ـ سلّمى عليه .

ـ حسن .

ـ نلتقى .

ـ على رأسى . . بخاطرك .

ـ مع السلامة .

ويتوجه بارطوغيميوس أغا بحديثه إليك .

ـ إيه ، تحدث لنر .

ـ ماذا أتحدث ؟

ـ أو ، الحمد للّه لأننا التقينا ، أين أنت يا أخى ، أين ؟

يسأل بارطوغيميوس أغا رجلاً بعمر السبعين .

ـ أنا هنا .

ـ هل اتفقت معه ؟

ـ على وشك الاتفاق .

ـ اتفقوا على شئ جميل ، خمسة أزود خمسة أنقص ، أنهوا العمل .

ـ وأنا أيضاً أفكر هكذا .

لديكَ عمل وتُريد أن تنفصل عنه ، لكن بارطوغيميوس أغا يمسك بيدكَ .

ـ اسمح لى بارطوغيميوس أغا .

ـ نذهب سوياً الآن ، بعد أن أنهى كلامى هذا ، عندى شئ أقوله لك ، كيف حالك . . . ؟

ـ ماشى الحال .

تخطو بعض الخطوات مع بارطوغيميوس أغا وها هو يتوجه نحو رجل فى المقهى .

ـ مرحباً يا أبتاه .

ـ أنا الخادم .

ـ لقد سعدتُ جداً .

ـ أشكرك .

ـ وهل كنا سنجد أفضل منكَ ؟

ـ تعيش .

ـ يلزمنا شخص مثلكَ .

ـ أنا ممتن .

ـ ومتى الترسيم .

ـ بعد شهر .

ـ لماذا شهر ، فليكن الأسبوع القادم وتنتهى المسألة . وهل ستُغير اسمك ؟

ـ نعم .

ـ وماذا سيكون ؟

ـ أمباكوم .

ـ هذا اسم مناسب بخاطرك سيدنا أمباكوم .

ـ مع السلامة .

وهكذا يأخذك بارطوغيميوس أغا وهو يُمسك بك من قبتكَ إلى حيث سيذهب . وعندما يصل إلى المكان يقول لك .

ـ ألن تتحدث يا أخى ؟

ـ وماذا أقول ؟

ـ لنلتق يوماً آخر ونتحدث مطولاً . إلى اللقاء ، لنلتق أكيد .

ـ مع السلامة .

ـ عندى ما أقوله لك .

ـ حسناً .

أنت تغضب ولكن اللباقة تمنعك من مواجهة قلة أدبه . تذهب وتفتح محلكَ فتفشل كل أعمالكَ فى ذلك اليوم . هل تذكرون يوماً كنتم غاضبين ولاقيتم النجاح ؟

أنا شخصياً لا أذكر .

على أية حال بارطوغيميوس أغا شخص يُمكن هضمه ، فهناك أمور لا تهضم بتاتاً ومجرد روايتها تجعل المرء يفزع .

اصبروا قليلاً .

صحافـــــــة

الأهــرام وأســرة الصحافـة المصريـة

بقلم : د . رامى عطا

لاريب أن جريدة «الأهرام» تُعد من أعرق الصحف قاطبة فى منطقة الشرق الأوسط بعد أن أكملت «١٣٦» عاماً من عمرها المديد فى أغسطس ٢٠١٢ . فقد وُلدت ونمت خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر وترعرعت إبان القرن العشرين بأكمله ولاتزال . ولا يغيب عن الأذهان أن تاريخ «الأهرام» لا ينفصل عن السياق العام لنشأة وتطور الصحافة المصرية .

رغم أن مصر قد عرفت الصحافة زمن الاحتلال الفرنسى لها (١٧٩٨ ـ ١٨٠١) ، فإن ميلاد الصحافة المصرية قد تم فعلياً على أيدى محمد على (١٨٠٥ ـ ١٨٤٨) فيما أطلق عليه المؤرخون «الصحافة الرسمية» مثل جورنال الخديو والوقائع المصرية والجريدة العسكرية . كما شهد حكم الخديو إسماعيل (١٨٦٣ ـ ١٨٧٩) نقلة نوعية فى مسار الصحافة المصرية بظهور «الصحافة الشعبية (الأهلية)» التى تنتمى إليها جريدة «الأهرام» .

ارتبط ميلاد الصحافة الشعبية بشخصية إسماعيل وظروف عصره . إذ كان هذا الخديو يعشق الدعاية ووسائطها المختلفة آنذاك وعلى رأسها الصحافة . وكان مولعاً بتقليد الثقافة الأوربية ومفرداتها من برلمان وعمران وفنون وصحافة . زد أيضاً أن الديون التى اقترضها لتنفيذ مشروعه لجعل مصر «قطعة من أوربا» أوقعت أرض الكنانة تحت المراقبة المالية للثنائى بريطانيا وفرنسا . هنا ، فكر إسماعيل فى إنشاء صحافة شعبية اسمياً ـ وإن كانت رسمية فعلياً ـ تُروج لسياسته وتُدافع عنه ضد أوربا والسلطنة العثمانية . فى هذا الإطار ، ظهر نوعان من هذه الصحف :

١ ـ صحافة شعبية ذات إدارة مصرية وأقلام مصرية مثل «وادى النيل» و «نزهة الأفكار» و «روضة الأخبار» و «الوطن» .

٢ ـ صحافة شعبية ذات إدارة شامية وأقلام سامية مثل «مصر» و «التجارة» و «المحروسة» و «الأهرام» .

وهكذا ، ظهرت جريدة «الأهرام» إبان ما أُصطلح على تسميته بـ «طور الشباب» (١٨٧٧ ـ ١٨٨٢) فى عمر الصحافة المصرية عندما نجح الأخوان سليم وبشارة تقلا فى الحصول على ترخيص إنشاء مطبعة «الأهرام» وجريدتها من نظارة الخارجية المصرية يوم ٢٧ ديسمبر ١٨٧٥ . وثمة عوامل قد تضافرت لتجعل من الإسكندرية خصوصاً وشارع البورصة المتفرع من ميدان

دكتوراه فى الصحافة
إعلام القاهرة

القناصل (المنشية حالياً) بالأخص محلاً لميلاد «الأهرام».

تميز الثغر السكندرى لحظة ميلاد «الأهرام» بأنه حلقة اتصال ، بل ووصل ، مثالية عززتها التكنولوچيا المعاصرة مثل تطور شبكة السكك الحديدية فيها ومنها وإليها علاوة على تطور النقل البحرى والبريد والتلغرافات . واتسمت التركيبة الديموجرافية للخريطة السكندرية بخصوصيات ثقافية وحضارية أضفت على قاطنى الثغر طبائع تحررية كانت فى صالح نمو آليات ثقافية من نمط «الأهرام» . وإذا كانت الإسكندرية قطب الجاذبية المصرى الرئيسى لاستقطاب الأوربيين ساعتئذ، فقد كانت أيضاً أبرز نواة جذبت الشوام النازحين إلى المحروسة إثر حوادث جبل لبنان إبان ستينيات القرن التاسع عشر حيث عمل عدد ليس بالقليل منهم فى حقلىّ الطباعة والصحافة مستفيدين عموماً من معطيات الموقع السكندرى جغرافياً وديموجرافياً وتكنولوچيا .

ويبدو أن رهان أصحاب «الأهرام» على أن تكون نقطة الانطلاق من الإسكندرية كان مؤشراً على ألا تبقى مولودتهم حبيسة الشأن المحلى ، بل تتخطى الحدود إلى ما هو معروف من المعمورة . وهنا ، كان الأخوان تقلا على وعى كبير بطبيعة التحولات التى ستطرأ على مصر . إذ بعد ثلاث سنوات من ميلاد «الأهرام» ، وتحديداً عام ١٨٧٩ ، خلعت بريطانيا وفرنسا الخديو إسماعيل عن عرشه بشكل درامى أنذر بتغيرات سياسية جذرية ستُلقى بظلالها على شارع الصحافة . واقتصادياً ، ارتبطت مصر بالسوق العالمى مما سيفتح آفاقاً واسعة أمام الصحافة لملاحقة تطورات وآليات السوق . واجتماعياً ، تبلورت عهدئذ شريحتا الأعيان والأفندية اللتين شكلتا قاعدة عريضة من جمهور الصحافة . وثقافياً ، شهدت فترة ميلاد «الأهرام» ظهور مؤسسات ثقافية مثل «الكتبخانة الخديوية» (دار الكتب المصرية) والأوبرا الخديوية علاوة على سلسلة من الجمعيات العلمية والصالونات الثقافية .

فى ضوء هذه الخلفية ، أصدر الأخوان تقلا العدد الأول من جريدة «الأهرام» يوم ٥ أغسطس ١٨٧٦ ، جريدة تصدر يوم السبت من كل أسبوع فى أربع صفحات ، متوسطة الحجم ، تتوزع أنهرها بين الأخبار المحلية والخارجية وبين المقالات الاجتماعية والأدبية . وقد رسم سليم تقلا السياسة التحريرية لاتجاه «الأهرام» فى «العرضحال» الذى تقدم به إلى الخارجية المصرية على النحو الآتى : «إن الغرض منها نشر التلغرافات والمواد التجارية والعلمية والزراعية والمحلية . وكذا من المقاصد طبع بعض الكتب كمقامات الحريرى وبعض ما يتعلق بالصرف والنحو واللغة والطب والرياضيات والأشياء التاريخية والحكم والنوادر والأشعار والقصص الأدبية وما شاكل ذلك من الأشياء الجايز طبعها بدون أن أتعرض للدخول مطلقاً فى الأمور البوليتيقية (السياسية)» .

ورغم اشتراط الخارجية المصرية على آل تقلا بعدم الخوض فى غمار السياسة ، فإن تداعيات الحرب الروسية العثمانية (١٨٧٧ ـ ١٨٧٨) وفتح ملفات المسألة الشرقية قد أحدث نقلة نوعية ليس فى مسار جريدة الأهرام وحسب ، بل وفى مسار الصحافة المصرية . إذ سمحت الحكومة الخديوية للصحافة بهامش من الحرية لتعاطى القضايا السياسية مما وضعها على درب «صحافة الرأى» . بيد أن «الأهرام» قد بالغت فى استخدام هذا الهامش حتى أن الحكومة أنذرتها مراراً لنشرها الموضوعات «المهيّجة للخواطر العامة» . كما أنها استغلت هامش الحرية «الممنوح» من الحكومة المصرية لنقد قمتها ممثلاً فى «شخص الخديو ذاته» الذى كان لا يقبل التقييم أو النقد . أضف أيضاً ، أن «الأهرام» تبنت الرؤية الفرنسية ضد الخديو ، ومن ثم ، الدفاع عن

المصالح الفرنسية . ولذا ، اضطرت الحكومة إلى إغلاق «الأهرام» ، ولكن سرعان ما سمحت بإعادة صدورها بفضل مساعى القنصلية الفرنسية .

تحولت «الأهرام» بدءاً من العدد رقم «١٠٠٣» إلى جريدة «يومية سياسية تجارية أدبية فكاهية» منذ ٣ يناير ١٨٨١ ، وأعلنت أن قُوام سياستها الجديدة ألا «تخلع على أحد نفوذاً ليس له ، وأن لا مدح بلا حق ولا طعن بلا مبرر» . وقد استلزم هذا التطور اتساع قاعدة الأنشطة التحريرية والإخراجية والطباعية والإدارية .

منذ ذلك الحين ، تباينت مواقف «الأهرام» بشكل ملموس . إذ تارة تُناصر المصريين ، وتارات أخرى تعكس رؤى الإنجليز والفرنسيين وإن حابت الأخيرين بوضوح فيما يخص الشأن المصرى . كما بالغت كثيراً فى ذكر مثالب الباب العالى وبالغت أكثر فى ذكر محاسن الأوربيين لاسيما الفرنسيين . بيد أن أسوأ المواقف الأهرامية كانت ضد الثورة العرابية . فقد وقفت «الأهرام» إزائها موقفاً سلبياً ، وأنذرت قادتها بالويل والثبور وعواقب الأمور . ولذا ، فلاغرو ، أن احترقت دارها أثناء فعاليات الثورة وتوقفت عن الإصدار لما يقرب من شهر بأمر من عرابى فى يونية ١٨٨٢ «لعدم التعاطف الوطنى» . وبعد ذلك ، توالت الأحداث عاصفة ووقعت مصر تحت براثن الاحتلال البريطانى فى ١٥ سبتمبر ١٨٨٢ . وبعد أسبوعين ، وتحديداً يوم ٢٩ سبتمبر ، طالعت «الأهرام» قراء الضاد بمقال وصفت فيه زعيم الثورة العرابية بـ «العاصى» ورفاقه بـ «البغاة» ومدحت سلطان باشا رأس الخيانة وعظّمت الجنرال ولسلى قائد الجيش البريطانى بل ونشرت له صورة فريدة .

على أية حال ، بوقوع مصر فى قبضة الاحتلال البريطانى ، بدأت الصحافة المصرية ، وضمنها الأهرام، مرحلة جديدة فى مسارها التاريخى أطلق المؤرخون عليها مرحلة «الكفاح ضد الاحتلال ١٨٨٢ ـ ١٩١٩» . والثابت أن سلطات الاحتلال قد استهلت عهدها بإلغاء الصحافة الوطنية (العرابية) وغيرها من الصحافة الموالية للنظام العثمانى والشأن الفرنسى ، وإن نجحت فى استمالة بعض الصحف الشامية مثل «المحروسة» لسليم النقاش و «الأهرام» لآل تقلا واستمالت حتى بعض الصحف الوطنية مثل «الوطن» لميخائيل عبد السيد . وفى المقابل ، صدرت «العروة الوثقى» فى المنفى الباريسى (١٣ مارس ـ ١٦ أكتوبر ١٨٨٤) لصاحبيها الأفغانى ومحمد عبده لتكون زائدة صحافة مقاومة الاحتلال . ولكن الإدارة البريطانية لم تتحمل بصماتها الإيجابية ، فمنعت وصولها إلى مصر والسودان والهند .

لم تطل فترة موالاة «الأهرام» للسلطات الاحتلالية وغيّرت من إستراتيچيتها مستفيدة من احتمائها بالقنصلية الفرنسية ونظام الامتيازات الأجنبية . وكشفت «الأهرام» عن سياستها الجديدة فى مقال نشرته يوم ١١ أغسطس ١٨٨٤ اتهمت فيه الحكومة المصرية بالعمالة لصالح الإنجليز خصوصاً فيما يخص قضية السودان وانسحاب الجيش المصرى من هناك . ولذا ، أصدرت الحكومة المصرية أمرها فى ٢٠ سبتمبر ١٨٨٤ بتعطيل الأهرام لمدة شهر . ورغم ذلك ، أجمع المؤرخون على أن «الأهرام» اتخذت آنذاك سياسة عثمانية بالأساس ولكنها لم تُهمل قاطبة الدفاع عن الصالح المصرى . ويُؤخذ عليها وقتذاك مشايعتها لفرنسا ؛ إذ كانت ترى أنها الدولة الوحيدة التى تُدافع عن مصر وتجاهلت موقف فرنسا الاستعمارى من الشعوب التى كانت تئن تحت سيطرتها فى قارتىّ أفريقيا وآسيا . ورغم معارضة «الأهرام» للاحتلال البريطانى، فإنها معارضة اتسمت بالحذر والحيطة خشية التعطيل والمصادرة .

حينذاك ، رأت السلطات الاحتلالية أنه لا يفل الصحافة إلا الصحافة ، فجندوا البعض وأيدوه مادياً ومعنوياً لضرب الصحافة المناوئة لهم . فى هذا الصدد ، نذكر صحيفة «الأعلام» (١٨٨٤ ـ ١٨٨٨) لصاحبها محمد بيرم التونسى التى جاملت الإنجليز وخدمت مصالحهم فى وادى النيل وناوءت المصالح الفرنسية . بيد أن المثال السافر الذى يُبلور هذا المنحى الاستعمارى ليتجسّد فى ميلاد جريدة «المقطم» يوم ١٤ فبراير ١٨٨٩ كجريدة يومية سياسية تجارية أدبية ولتكون بوقاً للمصالح البريطانية فى مواجهة «الأهرام» بوصفها بوقاً للمصالح الفرنسية . ولم تقف المساعدات البريطانية للمقطم عند حد التمويل ، بل تخطته إلى حمايتها وصبغ الحصانة عليها طالما أنها تتفانى فى خدمة الإمبراطورية التى لا تغيب عنها الشمس .

وإذا كان أوائل عام ١٨٨٩ قد شهد ميلاد «المقطم» بمشار بها الاستعمارية ، فإن أواخر العام ، وتحديداً فى أول ديسمبر ، قد شهد ميلاد «المؤيد» بروافدها الوطنية لصاحبها الشيخ على يوسف . وتُعد هذه الجريدة باكورة الصحافة المصرية المناوئة للاحتلال وأول دورية يُصدرها مصرى منذ إخفاق الثورة العرابية وبلورت صعود الحركة الوطنية المصرية . ويتفق المؤرخون على أنها بدأت العصر الذهبى فى صحافة الحركة الوطنية (١٨٨٩ ـ ١٩١٤) .

وبعد أقل من عام على صدور «المقطم» و «المؤيد» بالقاهرة ، أنهت «الأهرام» إقامتها لمدة ربع قرن بالإسكندرية وغادرتها إلى عاصمة الديار المصرية يوم ٣١ أكتوبر ١٨٩٩ . ومنذ تسعينيات القرن التاسع عشر، استأثر ثالوث «المؤيد» بوطنيته و «المقطم» بإنجليزيته و «الأهرام» بفرنسيته بشارع الصحافة المصرية. ولكن إذا كانت «الأهرام» غريماً لدوداً للمقطم، فقد كانت «المؤيد» غريماً ألد لكليهما .

ويشهد مطلع القرن العشرين ، وتحديداً يوم ٢ يناير ١٩٠٠ ، ميلاد جريدة «اللواء» لصاحبها مصطفى كامل الذى تمرّس على الكتابة الصحفية فى جريدتىّ «الأهرام» و «المؤيد» . وتُعد «اللواء» علامة فارقة على درب الحركة الوطنية لما لها من دور فعّال فى صياغة رأى عام مناهض للاستعمار البريطانى .

بيد أن صفقة «الاتفاق الودى» الاستعمارية بين بريطانيا وفرنسا عام ١٩٠٤ أصابت المناخ الصحفى بصدمة عنيفة أثرت على مساراتها . إذ هبطت حماسة «المؤيد» وبمرور الوقت غيّرت من خطتها وراحت تُدافع عن الاحتلال . وفترت قوة «الأهرام» . ولم يبق على سياسته إلا «اللواء» التى اندفعت تدب الحماسة فى نفوس المصريين وتُندد بخيانة فرنسا للطموحات المصرية .

تتابعت سريعاً الأحداث التى أثرت الحياة السياسية والصحفية المصرية بدءاً من حادثة دنشواى (١٩٠٦) وعزل كرومر وصدور «الجريدة» لأحمد لطفى السيد (١٩٠٧) ووفاة مصطفى كامل (١٩٠٨) مروراً باغتيال بطرس غالى (١٩١٠) واندلاع الحرب الإيطالية العثمانية (١٩١١) وانتهاءً بحرب البلقان (١٩١٢ ـ ١٩١٣) والحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) . ورغم أن أحداث الحرب الأخيرة تُعد مادة ثرية ومثيرة للإعلام ، فإنها سببت ركوداً فى المناخ الصحفى . إذ أن بريطانيا أعلنت الأحكام العرفية وعطلت الجمعية التشريعية وارتفعت أسعار الورق وكافة المستلزمات الطباعية حتى أن معظم الصحف الصادرة وقتذاك كانت لا تزيد عن «نصف فرخ من الورق» . وعندما وضعت الحرب أوزارها ، واصلت الصحافة دورها فى متابعة القضية المصرية لحصول مصر على استقلالها . هنا ، ظهرت قنوات صحفية جديدة على الساحة زاملت «الأهرام» مثل «الأخبار» (١٩٢٠) و «السياسة» (١٩٢٢) و «البلاغ» (١٩٢٣) .

وهكذا ، استعرضنا فى الصفحات القلائل السابقة الخطوط العريضة لميلاد «الأهرام» ونموها خلال النصف قرن الأول من عمرها . وثمة سؤال يطرح نفسه : لماذا بقيت «الأهرام» على قيد الحياة حتى الآن واختفت كل الصحف المصرية الصادرة قبلها ومعها وبعدها عدا الوقائع المصرية؟ ولماذا لم تعصف بها التقلبات السياسية التى شهدها التاريخ المصرى الحديث والمعاصر ؟

لاشك أن استمرار «الأهرام» إبان كل هذه الحقب وتلك التحولات قد استلزم مقومات ذاتية وعناصر قوة ويُعد ظاهرة جديرة بالتفسير . بادئ ذى بدء ، اتسمت «الأهرام» منذ نعومة أظفارها بـ «مرونة سياسية» قوامها عدم الانحياز لطرف ما فى الصراعات السياسية الحزبية المشتعلة فى الميدان المصرى . وإذا كانت هذه السمة قد أسهمت فى امتداد عمر«الأهرام» ، فإنها ألصقت بها صفات «الميوعة» و «الغموض» بل و «الضبابية» أحياناً فى اتجاهاتها ومواقفها . ولكن ، ثمة سمة ميزت الأهرام ـ وحدها ـ عن عائلة الصحافة المصرية وأسهمت بشدة فى منحها إكسير الحياة خلاصتها استكتاب كل ، أو بالأحرى جُل ، النخبة المصرية دون أية تفرقة سياسية أو فكرية أو دينية أو اجتماعية . وينم هذا عن حس صحفى وبُعد مؤسسى للقائمين على «الأهرام» فى إدارة مؤسستهم ناهيك عن الأخذ بكل ما هو جديد فى دنيا تكنولوچيا الطباعة والمستحدثات الصحفية مما أكسبها استقراراً واستمراراً . إضافة إلى ما سبق ، أولت «الأهرام» اهتماماً زائداً بالشئون الخارجية فيما كانت تنشره من «تلغرافات» واردة إليها من وكالات الأنباء العالمية علاوة على متابعات مراسليها الخصوصيين عبر العالم لفعاليات الأحداث وتداعياتها وحصاد المطابع بشتى اللغات .

مقتطفــات

تُعد اصدارات الصحافة المصرية فى مطلع القرن العشرين من أقوى الدوريات التى كانت تصدر آنذاك على مستوى العالم الإسلامى . ويكفى أن نقتطف بعضاً من تعليقاتها على مذابح أضنة وتداعياتها وتوقعاتها لتأكيد هذا . فى ١٩ يولية ١٩٠٩ ، علّقت جريدة «وادى النيل» السكندرية ، اتحادية الهوية ، بقولها : « . . . ليحمدوا (الأرمن) الله على قيام الحكومة الحالية التى تضمهم إلى صدرها كسائر أبناء الدولة من بقية الرعايا ، فعليهم أن يعدلوا عن الجفاء والنفور إذا عقلوا وأحسنوا وإلا فإنهم لا ينالون من الدولة منالاً ولا يجنون غير الضرر . هذه هى الحقيقة لو يفهمون» . وفى ١٢ سبتمبر ١٩٠٩ ، علّقت جارتها «الاتحاد المصرى» ، الوطنية الهوية والهوى ، قائلة : «والظاهر من الأحوال الجارية الآن فى الأستانة أن بعض المكائد تُدبّر لإبادة العنصر الأرمنى حتى تستريح حكومة الأحرار من مساعيه كما كانت دولة الظلم والاستبداد عاملة على ذلك من قبل» . وفى ٢٦ أكتوبر ١٩٠٩ ، علّقت «الأهرام» بقولها : «وشاع منذ أيام أن مسلمى أطنه ينوون القيام على الأرمن ، فصدرت الأوامر المشددة إلى حكومة أطنه بأن تُخمد أنفاس كل حركة بالقوة الصارمة . فهل يرتاح الأرمن إلى ذلك ، وهل هم باتوا فى أمن تام ؟!» . لاريب أن علامتىّ الاستفهام والتعجب التى أنهت بهما «الأهرام» تعليقها قد انفكت شفرتهما فى ٢٤ أبريل ١٩١٥ .

معجم المرأة الأولى فى مصر

الجزء الرابع

إعداد : شيماء الشواربى

منذ العصر المصرى القديم ، حظيت المرأة المصرية بمكانة محورية فى الحياة الأسرية والمجتمعية . وبمرور الزمن ، ترسّخت هذه المكانة بموجب الشرائع السماوية . وفى العصور الحديثة ، أسهمت المرأة بامتياز فى المنظومة المصرية على كافة المستويات . ونظراً لهذا الإسهام ، تنفرد «أريك» بنشر سيرة ذاتية مقتضبة لأول مرأة فى جميع التخصصات والمجالات والميادين المختلفة ، وسوف نقوم بترتيب أسمائهن أبجدياً . وتجدر الإشارة إلى أننا استقينا معلومات هذا المعجم من مواقع إلكترونية وكتب متخصصة فى تاريخ المرأة وموسوعات على رأسها : ١٠٠٠ شخصية نسائية مصرية للأستاذ أحمد رجائى ، وأعلام مصر فى القرن العشرين من إعداد وكالة أنباء الشرق الأوسط وغيرهما .

١ ـ د. سميرة صالح

الأولى على الثانوية العامة علمى عام ١٩٦٠ . والأولى على دفعة صيدلة القاهرة عام ١٩٦٥ . ماجستير عن امتصاص بعض الأدوية فى البلهارسيا . دكتوراة عن البلهارسيا . مشاركة سنوية فى مؤتمرات الدواء العالمى . لها أبحاث فى مجالات الأدوية واستخدام زيت حبة البركة فى علاج الربو وأدوية مرض البول السكرى . فازت بجائزة أفضل بحث من جامعة القاهرة عام ١٩٨١ .

٢ ـ د.سمية فهمى

مواليد عام ١٩١٠ . درست بكلية بدفورد وحصلت على البكالوريوس فى علم النفس ودبلوم فى دراسات الطفولة من معهد فرويل بلندن . ماجستير فى علم النفس . عادت لتعمل بمعهد التربية العالى للمعلمات بالزمالك منذ نشأته . الدكتوراة من قسم علم النفس بجامعة أنديانا بأمريكا . أول أستاذة عربية ومصرية فى علم النفس واشتغلت بالعلاج النفسى فى عيادتها الخاصة . كما أنشأت أول عيادة للطب النفسى بجامعة عين شمس وتولت مسئولياتها . من مؤلفاتها : تفسير التعليم . ولها محاضرات فى الإذاعة جمعتها فى كتاب . تُوفيت عام ١٩٩٧ .

٣ ـ سناء خلاف

مواليد ٢٤ أغسطس ١٩٣٨ . دبلوم المعهد العالى للتربية الرياضية بالجزيرة ١٩٥٨ . بدأت العمل بوزارة التربية والتعليم عضواً فنياً مسئولاً عن النشاط الرياضى للأنشطة المدرسية على مستوى الجمهورية (١٩٥٨ ـ

١٩٦٤) . ثم مسئولة بالمجلس الأعلى للشباب والرياضة عن الأنشطة الثقافية والرياضية للمراحل السنية من ٦ ـ ١٢ عاماً فى مراكز الشباب ثم مديرة لإدارة المتابعة قطاع الرياضة . ومسئولة عن المشروعات التجريبية لقطاع الطلائع عام ١٩٨٠ فمديراً عاماً للخدمات والمشروعات . وكيلة للوزارة ورئيسة لقطاع الطلائع . أول سيدة تتقلد منصب نائبة رئيس المجلس (١٩٩٥ ـ ١٩٩٨) . تقاعدت (١٩٩٨) .

٤ ـ سهير إسماعيل عسر

دبلوم المعهد التجارى الفنى المتوسط عام ١٩٨٥ . وهو مؤهل فوق المتوسط . الأسرة من قرية «البرادعة» مركز القناطر محافظة القليوبية . تقدمت بأوراقها لمديرية الأمن بالمحافظة تطلب التعيين فى وظيفة «شيخ البلد» . تمت الموافقة على طلبها وأصبحت أول سيدة تشغله مع مطلع ١٩٩٩ .

٥ ـ د. سهير القلماوى

مواليد القاهرة ٢٠ يولية ١٩١١ . تلقت تعليمها العالى فى كلية البنات الأمريكية . أول فتاة تلتحق بالجامعة عام ١٩٢٩ . وأول فتاة تحصل على الماجستير من السوربون بباريس والدكتوراة فى الأدب (١٩٣٧ ـ ١٩٤١) . رئيسة قسم اللغة العربية بكلية الآداب جامعة القاهرة وأستاذة الأدب (١٩٥٨) . عضو المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية . مقررة لجنتّى الفنون الشعبية وثقافة الطفل . عضو بنادى القصة وجمعية الأدباء . عضو بمجلس المديرين للموسوعة الميسرة . رئيسة مجلس إدارة المؤسسة المصرية للتأليف والنشر . فازت فى انتخابات القاعدة الشعبية «مجلس الأمة» عن قسم الظاهر عام ١٩٥٩ . من مؤلفاتها : أحاديث جدتى (١٩٣٥) . ألف ليلة وليلة (١٩٤٣) . أدب الخوارج (١٩٤٥) . فى النقد الأدبى (١٩٥٥) . الشياطين تلهو (١٩٦٤) . ثم غربت الشمس (١٩٦٥) . ترجمت العديد من الكتب والقصص منها : قصص صينية لبيرل بك وعزيزتى اللوبنا ورسالة أبون لأفلاطون . ومن أبحاثها : المرأة عند الطهطاوى وأزمة الشعر . ترجمت عشر مسرحيات لشكسبير ، وأكثر من ٢٠ كتاباً فى مشروع الألف كتاب . مثلت مصر فى العديد من المؤتمرات العالمية . أول سيدة تحصل على جائزة الدولة التقديرية فى الآداب (١٩٧٧) . جائزة المجمع اللغوى عن رسالتها للدكتوراة . جائزة الدولة : الأدب مناصفة مع د. شوقى ضيف عام ١٩٦٣ . جائزة عبد الناصر من الاتحاد السوڤيتى (١٩٧٦) . وسام الجمهورية من الطبقة الأولى (١٩٧٨) . عضو نقابة الصحفيين . تُوفيت فى ٤ مايو ١٩٩٧ .

٦ ـ د. سهير محفوظ نجم

بكالوريوس الفيزياء والرياضيات عام ١٩٧٠ من علوم عين شمس . ماچستير ثم دكتوراة عام ١٩٨٦ . معيدة ثم أستاذة بهندسة جامعة الزقازيق (١٩٨٦) . أول سيدة تعين رئيسة لقسم العلوم الطبيعية بهندسة شبرا جامعة الزقازيق . كانت ضمن أول مجموعة تبحث فى مجال الليزر بجامعة عين شمس ومن مؤسسى أول معمل لليزر بالجامعة ومديرة له . لها أبحاث مهمة حول استخدامات الليزر فى اكتشاف الأمراض السرطانية وعلاجها .

٧ ـ د. سهير مخيمر

مواليد الإسكندرية ١٥ يونية ١٩٤٠ . بكالوريوس التمريض جامعة الإسكندرية عام ١٩٦٢ . معيدة بالمعهد . دبلوم إدارة المستشفيات ودبلوم التثقيف الصحى . الدكتوراة فى الصحة العامة . أستاذة مساعدة عام ١٩٨١ . أستاذة انتدبتها جامعة عين شمس لإنشاء أول معهد عال للتمريض ومنحتها شهادة تقدير . عضو لجنة تنظيم الدورات المحلية والدولية ولجنة المراجعة

وتدريب الممرضات بوزارة الصحة . لها أبحاث عن أمراض البلهارسيا والروماتيزم وأمراض القلب .

٨ـ سوسن حجازى

مواليد القاهرة فى ٢ أبريل ١٩٤١ . ليسانس حقوق جامعة القاهرة عام ١٩٦٦ . بدأت العمل فور تخرجها بمصلحة الضرائب . تدرجت فيها حتى أصبحت أول سيدة تُعين رئيسة لمأمورية ضرائب (مصر الجديدة ثانى) ١٩٩٢ ورئيسة لمنطقة ضرائب سادس للتحصيل ١٩٩٨ .

٩ـ سيزا نبراوى

رائدة من رائدات العمل الاجتماعى والوطنى . مواليد ٢٤ مايو ١٨٩٧ بالغربية . زوجها المثّال مصطفى نجيب تلميذ محمود مختار الذى نحت تمثال الخديو إسماعيل ليُوضع فى ميدان التحرير . ولكن تركت قاعدته بلا تمثال حتى تم إزالتها مع مشروع مترو الأنفاق . تعارف الاثنان فى صالون هدى هانم شعراوى . وتزوجا وعاشا فى المعادى بمهر رمزى ٢٥ قرشاً . ولكنها انفصلت عنه ووهبت حياتها للدفاع عن قضية المرأة . شاركت فى أول مظاهرة نسائية أثناء ثورة ١٩١٩ . وشاركت فى تأسيس لجنة الوفد النسائية . رأست تحرير مجلة نسائية «المصرية» بالفرنسية (١٩٢٥) ولمدة ١٥ عاماً انتخبت وكيلة للاتحاد النسائى الدولى الديمقراطى . ونائبة لرئيس الاتحاد النسائى العالمى . نظمت مظاهرة نسائية بعد إلغاء معاهدة ١٩٣٦ ضد الإنجليز . أعادت تكوين لجنة المقاومة الشعبية أيام عدوان عام ١٩٥٦ . بالمكتب الدائم للسلام بچينيف . حصلت على وسام لينين من الاتحاد السوڤيتى عام ١٩٧٠ . ووسام من جمعية هدى شعراوى عام ١٩٧١ والعضوية الشرفية مدى الحياة عام ١٩٧٩ . تُوفيت عام ١٩٨٥ .

١٠ـ د. شريفة المراغى

بكالوريوس الطب والجراحة طب قصر العينى عام ١٩٦٢ . بدأت العمل فى القطاع الريفى بمحافظة سوهاج ثم فى الطب العلاجى . عضواً نقابياً دورتين متتاليتين . ثم نقيبة للأطباء بسوهاج . وفازت على منافسها الطبيب بفارق كبير . أول سيدة على مستوى الجمهورية تحصل على منصب نقيب الأطباء لنقابة فرعية .

١١ـ شيماء منصور

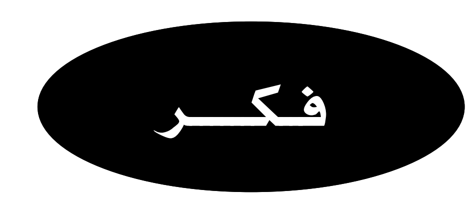
مواليد ٣١ يولية ١٩٨١ . أصغر مُحكِّمة كرة قدم فى مصر والشرق الأوسط . طالبة بكلية الخدمة الاجتماعية جامعة القاهرة . بدأت ممارسة ألعاب القوى بالنادى الأهلى (١٩٩٣) . وهى فى سن ١٥ علمت بتكوين أول فريق نسائى لكرة القدم فتقدمت إلى سحر الهوارى كابتن الفريق وانضمت إلى أول منتخب نسائى مصرى لكرة القدم . سرعان ما حولّت اتجاهها إلى التحكيم وتقدمت للامتحان ضمن أول دفعة يقبلها اتحاد كرة القدم من الفتيات وكانت الأولى . واعتمدت فى سن ١٧ لتكون أصغر (مُحكِّمة) فى الوطن العربى والشرق الأوسط . طافت محافظات الجمهورية منذ عام ١٩٩٨ لتحكيم مباريات فرق دورى الدرجة الأولى وكأس مصر سيدات ورجال تحت ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٨ سنة وتم اختيارها لتكون أول فتاة تحكم مباراة كرة قدم بين الشباب تحت ٢٠ سنة فى الدورى المتصاعد . حصلت على العديد من شهادات التقدير من مؤسسات الدولة والأندية الرياضية . وسام الجامعة الأردنية فى الإنجاز الرياضى . وسام الطالبة الرياضية المثالية الأولى على مستوى الجامعات والمعاهد المصرية (٢٠٠٠) .

١٢ـ د. عائشة راتب

أول سيدة تتقلد منصب سفيرة . وزيرة الشئون الاجتماعية . مواليد ٢٢ فبراير ١٩٢٨ . التحقت بكلية الآداب ثم حولت للحقوق . ليسانس حقوق جامعة فؤاد الأول (القاهرة) ١٩٤٩ بتقدير جيد جداً . قابلت معارضة شديدة لتعيينها معيدة بالكلية باعتبارها فتاة، ولكنها أصرت فكانت أول معيدة بقسم القانون الدولى عام ١٩٥٠ . وكانت قد تقدمت للعمل فى مجلس الدولة عقب تخرجها فرُفض طلبها لنفس السبب فأقامت دعوى على المجلس أمام المجلس نفسه واستمرت فيها رغم تعيينها معيدة تأكيداً لمبدأها . ورُفضت دعواها باعتبار الأمر يرجع للسلطة التقديرية . دبلوم فى القانون العام (١٩٥٠) والقانون الخاص (١٩٥١) . سافرت لفرنسا لاستكمال الدكتوراة (١٩٥٥) . تدرجت فى السلك الجامعى ، وكانت أول سيدة تتقلد الأستاذية فى القانون الدولى وأول سيدة عضو فى مجلس كلية الحقوق (١٩٧٠) . تحققت نبوءة مصطفى أمين بأنها ستُصبح وزيرة . وقد كان ١١ نوفمبر ١٩٧١ يوم تقلدها وزارة الشئون الاجتماعية فى حكومة د. عزيز صدقى. ثم عضواً فى لجنة العمل للاتحاد الاشتراكى (١٩٧٢) ثم وزيرة للشئون الاجتماعية (١٩٧٣) فى الوزارة التى رأسها الرئيس أنور السادات ـ وأعيد اختيارها فى الوزارة يوم ٢٥ أبريل ١٩٧٤ ضمن وزارة د. عبد العزيز حجازى . رئيسة للدورة الثالثة للجنة المرأة بجامعة الدول العربية ١٩٧٤ . وزيرة فى وزارة ممدوح سالم ١٩٧٦ وحتى أول فبراير ١٩٧٧ . صاحبة مشروع الخدمة العامة . شاركت فى وضع مشروع قانون الأحوال الشخصية . تسلمت قلادة الجمهورية تقديراً لخدماتها . سفيرة بوزارة الخارجية نوفمبر ١٩٧٨ . سفيرة بسفارة مصر فى كوبنهاجن عام ١٩٧٩ . لها مؤلفاتها وبحوث عديدة فى القانون الدولى . أستاذة بحقوق القاهرة. تواصل مشاركتها ومتابعتها للنشاط الاجتماعى والقانونى . رئيس وعضو مجلس إدارة جمعية القانون الدولى .

١٣ـ صفية «هانم» زغلول

من مواليد عام ١٨٧٨ . والدها مصطفى باشا فهمى رئيس وزراء مصر . وافق على زواجها عام ١٨٩٦ من المحامى سعد زغلول الذى ينتسب لطبقة الفلاحين ويكبرها بحوالى ١٨ عاماً . وكان شاباً متطوراً فيما يخص المرأة مما جعله يُساعد صديقه القاضى قاسم أمين على إصدار كتابه «تحرير المرأة». وقد أصبح سعد باشا زغلول بعد ذلك زعيماً للأمة ورئيساً لوزراء مصر . تزعمت الحركة النسائية فى مصر وشاركت فى أول مظاهرة نسائية فى القاهرة عام ١٩١٩ احتجاجاً على أعمال الاستعمار الإنجليزى . صاحبة القول المشهور «إن كانت حياة النهضة فى بقاء سعد بمنفاه فبقاؤه فى ذلك المنفى هو كل ما أتمناه» . لُقبت دارها بشارع سعد زغلول باسم «بيت الأمة» فقد كان ملتقى للأحرار والوطنيين . ولُقبت بـ «أم المصريين» . رغم طلبها أن يسمح لها بالسفر إلى زوجها فى منفاه بجبل طارق ورغم موافقة الإنجليز ، فإنها فضلت أن تُواصل الكفاح من داخل بيتها «بيت الأمة» مع أبناء الشعب الأحرار . بعد عودته ظلت معه فى رحلة الكفاح حتى وفاته عام ١٩٢٧ . ولحقت به عام ١٩٤٩ ودُفنت معه فى ضريحه القائم بالقرب من بيته . وأُطلق اسمها على أحد الشوارع المهمة بالإسكندرية وميدان أم المصريين بالجيزة .



الأرمن والفكر السياسى العربى

قراءة فى فكر أديب إسحق

إعداد : عطا درغام

أسهم الأرمن إيجابياً فى منظومة البلاد العربية التى استوطنوها منذ أمد بعيد على كافة المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية . وفى هذا الصدد ، ثمة إسهام جد مهم للأرمن ، ألا وهو الإسهام فى مجال الفكر السياسى العربى لاسيما الأرمنيين الكاثوليكيين الحلبيين رزق الله حسونيان وأديب ساهاجيان (إسحق) . ويُسعد مجلة «أريك» أن تُقدم لقرائها الأفاضل إسهام هذين الأرمنيين فى مضمار الفكر السياسى العربى الحديث .

حياته

وُلد أديب إسحق (ساهاجيان) فى دمشق عام ١٨٥٦ فى أسرة مسيحية بسيطة من طائفة الأرمن الكاثوليك .

تلقى علومه فى مدرسة «الآباء العازريين» فى دمشق ، وكان مبرزاً بين رفاقه . وأخذ ينظم الشعر ، منذ العاشرة من عمره ، وفى الحادية عشرة دخل فى خدمة الجمارك براتب يسير ، استفاد منه لإعالة أسرته التى أصابها «سوء حال وعطلة (تعطيل) أعمال» . عُين والده بعد ذلك موظفاً فى البوسطة العثمانية ببيروت ، فاستدعى الوالد ابنه أديب إلى بيروت ليُساعده فى عمله وكان قد بلغ الخامسة عشرة من عمره ، فتعرف على بعض أدبائها من أمثال مصباح رمضان والشيخ فضل القصار وبولس زين . وفى السابعة عشرة ، نال وظيفة فى جمارك بيروت فقضى فيها مدة قصيرة ، ولكنه مال إلى التفرغ للكتابة ، فتولى تحرير جريدة التقدم (التى كانت قد أسست قبل عمله فيها) مدة طويلة ، كما تولى تحرير جريدة ثمرات الفنون وكان مغرماً بالمطالعة والدراسة ، ويُحسن اللغتين العربية والفرنسية . انتسب إلى جمعية زهرة الآداب وكان له فيها نشاط مهم . وابتدأ يُؤلف علاوة على التحرير الصحفى ، فألف كتاب «نزهة الأحداق فى مصارع العشاق» . وشارك فى عام ١٨٧٥ سليم النقاش فى تأليف كتاب «آثار الأدهار» (آلف منه ثلاثة أجزاء) . وتلبية لطلب القنصل الفرنسى فى بيروت ترجم شعراً ونثراً رواية أندروماك للشاعر الفرنسى راسين ، ومُثلت فى بيروت إسعافاً للبنات اليتامى . وكان آنذاك فى التاسعة عشرة من عمره . غادر بعد ذلك بيروت إلى الإسكندرية بناء على طلب زميله سليم النقاش ، وعملا هناك فى تمثيل بعض الروايات العربية الأصلية

والمعربة . فأعاد ترجمة أندروماك وحسّنها ، كما ترجم رواية شارلمان . سافر بعد ذلك إلى القاهرة وتتلمذ لجمال الدين الأفغانى ؛ إذ لزمه ودرس عليه شيئاً من الفلسفة الأدبية والفلسفة العقلية والمنطق . أنشأ فى القاهرة جريدة «مصر» (كان ذلك فى عام ١٨٧٧) . أقبل الناس على مطالعتها ، عندئذ نقل إدارتها إلى الإسكندرية ، وتشارك فى إصدارها مع سليم النقاش . وأنشأ جريدة أخرى هى «التجارة» التى كانت يومية ، وحولا «مصر» إلى جريدة أسبوعية . ألغت الحكومة بعد مدة الجريدتين . فسافر أديب إسحق فى عام ١٨٨٠ إلى باريس وأنشأ فيها جريدة «مصر القاهرة» اشتهرت بنقدها اللاذع وحدتها كما يقول مترجم حياته . فعرف فى باريس الشهرة والحظوة وتعرف على بعض رجالات الدولة فى فرنسا وأصبح مقرباً منهم ، وحضر عدة جلسات لمجلس نواب فرنسا ، وتأثر بخطبائه البلغاء . وداوم مدة على «المكتبة الوطنية» فى باريس يقرأ بعض مخطوطاتها العربية القديمة . قضى فى باريس تسعة أشهر فاعتلت صحته وأُصيب بمرض السل ، فرحل عنها مصدوراً إلى بيروت وعاد إلى التحرير فى جريدة «التقدم» .

وفى أواخر عام ١٨٨١ عاد إلى مصر أثر إنقلاب النظارة المصرية . عُين فى القاهرة ناظراً لقلم الإنشاء والترجمة بديوان المعارف . ورخصت له الحكومة برئاسة شريف باشا باستئناف نشر جريدة «مصر» ، فنال الرتبة الثالثة وعُين كاتباً ثانياً لمجلس النواب . وكان كل ذلك بفضل شريف باشا . وعندما اندلعت ثورة عرابى هاجر إلى بيروت. وبعد أن حل الإنجليز فى الإسكندرية عاد إليها من بيروت وطالب بالعودة إلى وظيفته السابقة ، خذل وأُعيد إلى بيروت ، فعاد إلى التحرير فى «التقدم» . وفى هذه الأثناء اشتد عليه مرضه (السل الرئوى) ، فأشار عليه الأطباء بالذهاب إلى مصر لملائمة هوائها لصحته . فالتمس الإذن بالعودة إلى القاهرة من سلطان باشا ، فسمح له هذا بالإقامة فى القاهرة . وبقى فيها فعلاً أياماً قليلة ورحل بعدها إلى الإسكندرية ، ولكن اشتدت عليه وطأة الداء فنصحه الأطباء بالعودة إلى بيروت. ولم يمض عليه ثلاثون يوماً حتى وافته منيته فى قرية «الحدث» بقرب بيروت فى ١٢ يونية ١٨٨٥ . مات ولم يتم التاسعة والعشرين من عمره . ولو قُدر له العمر الطويل لكان له شأن فى عالم الفكر والأدب فى أيامه ، وفى تاريخ العرب بالذات ؛ إذ على قصر عمره ترك لنا آثاراً مهمة تدل على سعة إطلاعه فى الأدب العربى والتاريخ العربى والإسلامى ، وحفظه للقرآن ، وعلى سعة إطلاعه فى الأدب والفكر الفرنسيين اللذين ينقل عنهما بشكل دائم .

مؤلفاته

حفظ لنا صديقه وزميله فى الصحافة جرجس ميخائيل نحاس ، مجموعة من أشعاره ورسائله ومقالاته وخطبه وأبحاثه ، وترجمته لرواية أندروماك ، وتمثيلية شارلمان ، ومجموعة بعنوان «الدرر» ، نشرها فى الإسكندرية ، فى عام ١٨٨٦ . ومن هذه المجموعة سنستمد أفكاره السياسية والاجتماعية .

أفكاره السياسية والاجتماعية

كان أديب إسحق معجباً بالثقافة الفرنسية ويغرف منها فى كل مقالاته وخطبه وأبحاثه ، ويستشهد بشكل مستمر بأدباء ومفكرى فرنسا المشهورين من أمثال راسين وهوجو وروسو ومونتينى ومونتسكيو وغيرهم . وكان معجباً بالثورة الفرنسية ومبادئها فى الحرية والمساواة وإقامة الجمهورية ، حاقداً على نابليون أشد الحقد ، لعدوانه على مبادئ الثورة الفرنسية . وقد عالج أديب كثيراً من الأفكار السياسية : كنقد الاستبداد ، وفساد الإدارة العثمانية ، والدفاع عن الحرية والمساواة ، وحكم الشورى والمساواة بين

الرجل والمرأة ، والتعليم الإلزامى والمجانى ، كما بحث فى الأمة والوطن والعواطف القومية والوطنية ، وكان بحثه هذا من أوائل الأبحاث العربية فى هذا الصدد . وقد نقل عنه الكواكبى كثيراً وكثيراً . مع العلم أن الاثنين كانا متأثرين بالأفغانى . وكان الأفغانى وإسحق من أعضاء المحفل الماسونى الشرقى الفرنسى ، لأن الأفغانى كان يكره الإنجليز . ويذكر لنا ذلك بمناسبة ترجمته لأستاذه الأفغانى ، إذ يقول : «وكان السيد جمال الدين الأفغانى كثير التطلع إلى السياسة ، شديد الميل إلى الحرية ، قوى الرغبة فى إنقاذ المصريين من الذل . فلما عظم التداخل الأجنبى فى مصر واختلت أمورها المالية ، علم أن لابد من تغير أحوالها ، فرام انتهاز تلك الفرصة لجمع الكلمة على مبدأ الحرية ، فدخل الماسونية ، وتقدم فيها حتى صار من الرؤساء . ثم أنشأ محفلاً وطنياً تابعاً للشرق الفرنساوى . ودعا مريديه من العلماء والوجهاء إليه فصار أعضاؤه نحواً من ثلاثمائة عداً . وعظم إقبال الناس عليه حتى أن توفيق باشا ، ولى العهد حينئذ ، طلب الدخول فيه . وكان صاحب الترجمة (أى الأفغانى) شديد الكراهية لدولة الإنجليز جهر بذلك «غير مرة» وقال فى نفس المقال : «وكنتُ من مريديه وخاصة محبيه طول مدة الإقامة بالمحروسة والإسكندرية» .

ومهما يكن من أمر ، فلم يترك لنا أديب إسحق مذهباً سياسياً متسقاً ، بل مقالات وأبحاثاً كتبها وألقاها فى مناسبات شتى . لهذا سنتتبع أبحاثه فى الدرر كما عُرضت ودون محاولة لمذهبة أفكاره السياسية والاجتماعية .

ألّح أديب على الحرية ، متأثراً فى ذلك بمبادئ روسو وڤولتير والثورة الفرنسية وأنظمة الحكم الأوربية الديمقراطية فى أيامه . وقد عالج موضوعها فى مناسبات عديدة . ففى خطبة ألقاها فى جمعية «زهرة الآداب» ببيروت ، يقول فى الحرية : «فالحرية ثالوث موحد بالذات ، متلازم الصفات ، يكون بمظهر الوجود فيُقال له الحرية الطبيعية وبمظهر الاجتماع فيُعرف بالحرية المدنية وبمظهر العلائق الجامعة فيُسمى بالحرية السياسية» .

ويُورد تعريف مونتينى فيقول : «وقد حددها بقوله : هى القدرة على فعل كل ما يتعلق بذاتى ، وبمثل ذلك حددها الحكيم بسنيك من قبل» .

ويُورد تعريف مونتيسكيو للحرية المدنية والحرية السياسية فيقول : «وعرّف الحرية المدنية بأن لا يُجبر المرء على ما لا تُوجبه القوانين ، وعرّف الحرية السياسية بأن يفعل كل ما تُجيزه القوانين» .

الفكر السياسى العربى

ويُعلِّق أديب على هذين التعريفين بقوله : «ومرجع هذين الحدين إلى وهم واحد وهو الذهول عن ماهية القوانين ، فإن الظاهر من قول هذا الحكيم الفرنساوى إن الحرية موجودة فى واشنطن وجودها فى طهران حاصلة فى لندرة (لندن) حصولها فى بكين . وليس الأمر كذلك ، بل الحرية الحقيقية غريبة فى كل مكان لسوء الحظ» .

ولكن أديب يُورد التعريف السائد فى عصره للحرية فيقول : «وقد أتفق الكثير من الناقدين على تعريف الحرية بكونها مقدرة المرء على فعل ما لا يضر بغيره من الناس ، وهو عين الحد المنصوص عليه فى القانون الرومانى» .

ويُعلِّق على هذا التعريف بقوله : «وفيه نقص من وجهين ، الأول إن إحداث الإضرار منوط بالأحكام الموضوعية على ما بها من الخلل ، والثانى إن قيد الإضرار بالغير يخرج عنه الإضرار بالذات ، وهو مخالف لمقتضى الناموس الطبيعى الحقيق بالاتباع» .

وهو نقد عميق جداً ويدل على عقلية العالم الاجتماعى والسياسى الموضوعية والنسبية .

ويعرض بتعاريف المداجين والمنافقين للحرية فيقول : «أما حدود المداجين وتعاريف المنافقين للحرية ، فلا محل لايرادها ولا موضع لانتقادها فى مثل هذا المقام ، فغاية القول فيها إن أهل السلطة الاستبدادية حيث كانوا ومن حيث كانوا يفترون على الحرية كذباً فى تعريفها بالطاعة العمياء والتسليم المطلق لمقال زيد مروياً عن حكاية عمرو مسنداً إلى رواية بكر مؤيداً بمنام خالد . فهى بموجب هذا الحد فناء الذهن وموت القوة الحاكمة وخروج الإنسان عن مقام الإنسان» .

ولكنه يرى أن هؤلاء المنافقين وأولئك المستبدين لم يستطيعوا أن يقضوا على نور الحرية ، لأنها «خاصة طبيعية وُجدت ليُنمى بها الإنسان قواه البدنية والعقلية متدرجاً فى مراتب كمالات الوجود» . وكان من سوء حظ الإنسان أن «مظاهر السلطة أتت على ضدها من كل وجه وفى كل زمان ، حتى كأنما أول ما سعت فيه الجمعية البشرية ألا يكون الإنسان إنساناً . وقد ألمت هاته الجمعية بالحرية الطبيعية فى كل مكان» (هذه أفكار چان چاك روسو) .

ويُعدد التدابير التى تتخذها المجتمعات للقضاء على الحرية الطبيعية وعلى الأقل لفها بلفاف التقاليد والسلطة (مثل نعل الحديد الذى يُوضع فى رجلىّ البنت الصينية وأقمطة الطفل فى الشرق ، والتقليد والمحاكاة فى التربية والمجتمع) . وكان قضاء المجتمع على الحرية المعنوية أشد وأنكى (يذكر هنا آراء روسو حول التدابير التى تُتخذ لخنق هذه الحرية) مثل أقمطة الطفل ووسم الطفل بالوشم وغمسه فى الكبخ ومنعه عن كل ما يُحسب أنه شر ولفه بالرهبة والرغبة والأوهام والأساطير والتربية الفاسدة فى البيت والمدرسة والتعليم التلقينى والحفظى . ولكن ذلك «ما كان ليُفيد أهل السطوة نفعاً فيما يُحاولون من تقييد النفوس ، ولكنه يزيد أهل الحرية استمساكاً بها حتى يبلغوا حد التعصب فيه . فالتشديد من جانب الدين يُضعف الإيمان ، والعنف من جهة السلطة يجلب العصيان . والغلظة من الطرفين لا تزيد على اقتياد الفكر لما يُمكن الوصول إليه بدلالة العقل ، إن كان خيراً أو رده عما يُمكن النجاة منه بقوة الرشاد ، إن كان شراً . ولكن أحكام الهيئة الاجتماعية مباينة لمبدأ السهولة . فهى تقضى (بالمغايرة) أو (الجنحة) أو (الجريمة) فى كل ما يُخالفها . والغرامة والسجن والسيف من وراء تلك الأحكام لتأييدها على رغم المخالفين . فحرية واقعة تحت أحكام استبداد مستمر .

ولكنه يُنبه إلى أنه لا يدعو إلى الحرية المطلقة لأن هذا يلتقى فى نهاية الأمر ، بالطرفين المتناقضين (دعاة الحرية ومناهضى الحرية) ، وإنما يُريد إظهار آثار القوانين الموضوعية والعادات المألوفة فى حرية الإنسان .

«فالقانون الحق لا ينقص الحرية ولا يُزيل الاستقلال ، ولكنه يُقيم لهما حدوداً تقيهما الضعف والاضمحلال . وشرط الحقية (المشروعية) فى القانون أن يكون موضوعه الحرص على حقوق الكل والحفظ لحق الفرد ما لم يمس تلك الحقوق . فالحكم يكون قانونياً لا من حيث أنه يذهب بحرية فرد من القوم ، ولكن من وجه أنه يحفظ حرية الكل . فلا ينبغى للقوانين أن تمس غير الذين ألموا بحقوق غيرهم من الناس . ولا يسوغ أن تُؤثر فى شأن الوطنى إلا بمقدار ما يُصيب من حق الجميع ، فهى من هذا القبيل ، معدلة للحرية لا ناسخة ولا مبدلة» .

ويظهر أن مثل هذه القوانين العادلة سادت فى كثير من الأمصار ، ونسخت آيات العدالة أحكام الامتياز الفاضح القاضى لبعض الناس بالراحة ، كل الراحة ، وعلى بعضهم بالعناء ، كل العناء ، وأبطلت أحكام

التبعة مراسيم الاستبداد الرافعة لبعض الناس إلى مقام الألوهية ، والهابطة بسائرهم إلى منزلة العجماوات» .

«وليس الأمر كذلك فى القوانين السياسية ، فهى عند الأكثرين استبدادية أصلاً وفرعاً ، تحتجب فيها الحرية بألوان الحكومات ، وتضعف بشهوات الأمراء وتُعّوه أو تُشوه بثورات الشعوب . فمقتضى ماهية الحكومة أن لا حرية إلا فيما بُنيت أحكامها عليه ، وموجب شهوة الحاكم إن الحرية قائمة بما مالت نفسه إليه، وغلظة الشعب فى ثورته ، محسنة لذلك الفساد من وجهيه» .

ويُظهر صراع الحكام والشعوب على الحرية : الحكام يُريدون الاستبداد وفقدان الحرية ، والشعوب تُريد الحرية ، مطلق الحرية . ومن أجله «كان أرباب الخطط الذين هم مظاهر السلطة بغضاء عند سائر القوم ، ومن أجله كانت الرعية بمنزلة الأعداء عند المستبدين» .

الحرية والمساواة

ويرى أديب أن الحرية والمساواة متلازمتان ، فلا حرية مع الامتياز . وهنا يُورد رأى بعض المؤلفين الأحرار فيقول : «ومن المقرر المتفق عليه بين النقدة الأحرار إن الحرية والمساواة متلازمتان ، فلا حرية مع الامتياز ، ولكن هناك درجات عبودية من الأمير إلى أحقر الرعية. تتصل دنياها بالرق ولا تصل علياها إلى الحرية . ولا خفاء فى ذلك ، فحد الامتياز أن يعمل أحد الناس ما لا يجوز لسائرهم ، وأن يحظر على الجمع ما يجوز لبعض الأفراد ، بحيث لا يتمتع الممتاز بمزيته ما لم يمس حرية سائر القوم ، ولا ينال هؤلاء حريتهم إلا بانعدام تلك المزية . فالامتياز والحرية متخالفان .

ولكنه يُؤكد «على أن الامتياز مناف للقوة الحاكمة أيضاً ، بما فيه من إخراج بعض الناس عن دائرة الحكم الكلى ، وتخويلهم من ذلك حقاً غير طبيعى يكون حكماً على الحكم . فهو عدو الحرية والحكومة معاً ، يُظاهر المستبدين على الشعوب وهؤلاء على المستبدين ، ثم لا يتحد بأحد الفريقين بحال» .

ويستدرك فيقول : «ولكن ليست المساواة مبدأ الحرية ، وإنما هى نتيجتها الطبيعية فإن لم تُوجد فلا تكون تلك حقيقة ، بل إذا ظهرت الحرية بمظهرها الحق بين الذين تولاهم الامتياز ، خالوا أنها بدعة منكرة . وما هى فى شئ من ذلك . ولكن بدعة الامتياز أخفت عنهم الحق وهم لا يشعرون» .

من كل ما تقدم يُقرر أديب أن «الحرية السياسية بعيدة المنال ، عسيرة الكمال ، بل يكاد يمتنع تكاملها فى فريق من الناس بما تُؤثر فيها عوامل العادات والقوانين والأخلاق والأحوال الاجتماعية . وإنما تحصل منها ضروب متنوعة تُشبه أن تكون ضروباً من الامتياز ، ثم تكثر وتمتد حتى يحصل منها لكل واحد من القوم نصيب ، فتعمهم أنواع الامتياز كأنهم جميعاً نبلاء . ولو حصلت لهم الحرية الحقيقية لكانوا جميعاً متساوين» .

التعصب والتسامح

وعالج فى إحدى خطبه التى ألقاها فى «جمعية زهرة الآداب» ببيروت مشكلة التعصب والتسامح .

وقد عرّف التعصب والتساهل لغوياً فقال : «لقد جرى لفظ التعصب على ألسنة أهل الإنشاء العربى بمعنى الغلو فى الدين والرأى إلى حد التحامل على من خالفهما بشئ فيما يدين وما يرى . وأُجريت ها هنا لفظ التساهل بمعنى الاعتدال فى المذهب والمعتقد على ضد ذلك الغلو ، متابعة للإفرنج فى لفظهم المعبر هنا القصد tolerance » .

ويرى أن هذين اللفظين العربيين «غير وافيين بالمراد

منهما اصطلاحاً» ، لذا ينتقل إلى إيراد التعريف العلمى أو الفلسفى فيقول : «وحد التعصب عند أهل الحكمة العصرية غلو المرء فى اعتقاد الصحة بما رآه ، وإغراقه فى استنكار ما يكون على ضد ذلك الرأى ، حتى يحمله الإغراق والغلو على اقتياد الناس لرأيه بقوة ومنعهم من إظهار ما يعتقدون ذهاباً مع الهوى فى ادعاء الكمال لنفسه وإثبات النقص لمخالفيه من سائر الخلق . وحد التساهل عندهم ، رضى المرء برأيه واعتقاد الصحة فيه ، واحترامه لرأى الغير كائناً ما كان ، رجوعاً إلى معاملة الناس بما يُريد أن يُعاملوه ، فهو على إثباته الصواب لما يراه لا يقطع بلزوم الخطأ فى رأى سواه وعلى رغبته فى تطرق رأيه للأذهان لا يمنع الناس من إظهار ما يعتقدون» .

فهنا ينقل أديب عن بعض المؤلفين الفرنسيين فى الأخلاق أو بعض الموسوعات التى تُعرِّف التسامح tolerance والتعصب fanatisme .

ويستعرض تاريخ التعصب الدينى ويصل إلى النتيجة التالية وهى مهمة جداً : «فعلمتُ أن التعصب على قدم وجوده حادث طارئ على الإنسان ، تولّد عن مفاسد الرئاسة فى الجماعات ، وتأصل بالعادة والتقليد ، حتى صار فى النفوس من الملكات» .

ولكنه يستدرك فيقول : «ولعلى أوجزت وأجملت والأمر محتاج إلى الإيضاح والتفصيل فأقول : قد اجتمعت آراء المتفكرين على أن الرئاسة قد حصلت بداءة بدء للمتمولين أو الأقوياء ، وفى الحالين لم يأمن الرؤساء على سطوتهم أن تزول بفقد الثروة أو انحطاط القوة ، فالتمس النبهاء منهم تأييدها بما لا تُؤثر فيه النوازل ولا يضعفه كرور الأيام ، فوضعوا للجماعات أحكاماً ، كل رئيس وما توهم فيه المصلحة ، أو ما رأى ميل قومه إليه ، فرضى كل أناس مشربهم ، وقالوا هذا هو الحق الذى لاريب فيه . وقال غيرهم من الأقوام بل الحق ما نحن عليه . فأنتم على ضلال مبين . فوقعت بينهم الإحن . وشبّت أعقابهم العداوات حتى قويت روابط الأوهام ، فتقطعت صلات الأرحام فصار من الفضيلة أن يقتل الإنسان أخاه إن خانه فيما يراه ، وامتلأت رؤوس الخلق عناداً ، فملأوا الأرض فساداً ، فغدت المظالم عدلاً وسُميت المذابح جهاداً» .

ويقول إن التعصب لايزال وإن كان ضعيفاً فى الغرب وناشطاً فى الشرق ، وأظهر التعصب أو التحامل الذى نراه على بقايا آل إسرائيل (اليهود) فى بلاد الروس والألمان» ، فهو من هذه الناحية غير متعصب ضد اليهود ويُهاجم تقليد الناس للسلف فى بلادنا وانحطاط العلوم فيها بالنسبة لما كانت عليه منذ ألف عام . ولكنه يقول : «أنا أسعد خلق الله فى أسعد بلاد الله ، فالحمد لله ثم الحمد لله» ويُلح على التساهل ، وهذا طبيعى من مسيحى كان يذوق جماعته التعصب الذى أثاره الأتراك ضد المسيحيين خاصة وأهل الذمة عامة . لذا يقول : وجب التساهل (التسامح) على الإنسان من ثلاث جهات : من جهة ذاته ، ومن جهة أبناء جنسه ، ومن جهة الحقيقة ، والحقيقة هى الله . (ويقول أن هذا القول لأحد كتاب الفرنسيس) ، ويُوجه إلى الله دعاء يُسميه «دعاء المتساهلين» يجعل فيه الجميع متساوين أمام الله و«يذكر أبناء الإنسان أنهم فى الإنسانية إخوان ، فلا يُمزِّق بعضهم بعضاً عناداً ولا يملأون الأرض فساداً . وتساوت عندك الأشياء ، وأنت فى الكل وللكل سواء ، وقنا العثرة مع المتعصبين وأحشرنا فى زمرة المتساهلين» .

فهنا ، يُظهر أديب نزعة إنسانية ، تحلى بها أبناء أكثر الأقليات التى اضُطهدت فى التاريخ .

بمناسبة الحرب التى وقعت بين العثمانيين والروس ، كتب أديب : «الملك إما استبدادى ، أو شورى . والشورى إما جمهورية أو ملكية . وهذه مراتب الملك منذ كان القانون ، ووجب حفظه وخرج عن هذه المراتب الحكومة الفوضى ، إن صحت تسمية الفوضى بحكومة» .

ويرى أديب «وما كل ملك بملائم لكل قطر ، وما كل قطر بصالح لكل ملك . فالجمهورية لا تصلح للصين ، كما لا تصلح الملكية الاستبدادية لإنكلترة . فان تلك وهى حكومة الشعب بالشعب ، لا يحسن أن تكون فى قوم تولاهم الجهل . وهذه ، وهى حكومة الشعب بواحد منه ، لا يصلح أن تكون فى قوم بلغوا من التمدن والمعرفة غاية نبيلة ، وإن كانت فلا تلبث أن تنقلب شر منقلب ، كما جرى لحكومة لويس السادس عشر وشارل العاشر ونابليون الثالث فى فرنسا . فإن حكومات هؤلاء الملوك ، وإن وسمت بالشورية ظاهراً فقد كانت استبدادية باطنا ، وذلك ما دعا إلى نقضها وثل عروشها» .

ومعلوم ان مصلحة الملك متعلقة بمصلحة المملكة ، فلابد للملك الحريص على مصلحة نفسه أن يحرص على مصلحة بلاده ، لأن عمرانها يقضى برفعة شأنه وتوطيد ملكه ، والعكس بالعكس . وعمران البلاد ينشأ عن حسن قانونها والعدل فى تنفيذه . وهذا وذاك متعلقان بالحكومة وتمسكها بالقانون وتنفيذه دون محاباة ولا تمييز ، لا تأخذها فى الحق لومة لائم . ومن الحكومات من تراعى ذلك فتجريه إيثارا لمصلحة بلادها وحرصا عليها . ومنها من تمتنع عنه فتكره عليه . ومثال هذه حكومة إنكلترة وفرنسا وأسبانيا . ومثال تلك حكومة الدولة العلية (العثمانية) والحكومة الخديوية ، فانهما ايدهما الله قد جعلتا حكومتهما شوروية ولا حامل لهما على ذلك إلا الرغبة فى عمران البلاد واحياء العباد شأن الحكومة الحكيمة من قبلهما ومن بعدهما .

وفى هذا تملق (ناجم عن الخوف بالطبع) لحكومة عبد الحميد الاستبدادية وحكومة الخديوى الأرستقراطية . وسيعود إلى تملق عبد الحميد حالا .

ويُلح أديب على حكومة الشورى . ويرى ان الشورى كانت معروفة بين كثير من الأقوام منذ القدم . ويقول «لقد عرف الناس ، الآن ، شرور الاستبداد إلا الروسية (روسيا) ، وذلك ان صحت تسمية الدولة المستبدة مطلقا بدولة متمدنة» .

ويحمل روسيا مسئولية منع بعض الدول من تطبيق حكم الشورى فى بلدانها ، ودليله على ذلك منعها الدولة العثمانية بهذه الحرب العنيفة التى دعا إليها الغرور ، من إنجاز ما شرعت فيه من اصلاح داخليتها وتنظيم شوراها وان الدولة العثمانية ، لولا هذه الحرب لما امتنعت عن تنفيذ هذا الاصلاح ، لأنها لم تهمل ذلك الشأن مع اهتمامها بالدفاع عن وطنها ، ولم تغفل عنه ساعة» .

ويسر بوعد السلطان عبد الحميد باقامة حكم الشورى وتنفيذ الاصلاح بعد انتهاء الحرب ويقول على لسان عبد الحميد : « وغاية ما أرجوه أن أرى حكومة الدولة العثمانية حكيمة شورية . والله اسأل أن يؤهلنى لصنع الخير فى قومى ، ويجمع على محبتى قلوبهم ، ويعيننى على ان اقيم فى بلادى بعد هذه الحرب الظلمية حكومة جيدة تضمن لها مستقبلاً حسناً» .

ويُعبر أديب عن تملقه الخائف بقوله متابعاً :

«فكيف لا تجتمع قلوب الرعية على ولائه ولا ينتظمون تحت لوائه ، وهو يعدهم بما لم تعدهم به الامانى من جعل حكومتهم شوروية حكيمة لا تأخذ

بالوجوه وتصرف عنايتها الى اصلاح شأنهم باستخراج المعادن من أرضهم المهملة ، وصيانة اراضيهم الصالحة للازدراع من افساد المعتدين ، وجلب الصناعات ، ونشر العلوم . وكيف لا تحب سلطانها أمة كالعثمانيين رأت فى الكثير من سلاطينها المتقدمين كبرا وانفرادا ، حين ترى فيه من الدعة ولين الجانب ما ادهش الأوربيين فضلا عن الشرقيين ودعاهم إلى الثناء عليه .

فهذه الصفات مضمومة الى ما تقدم ذكره من حسن النية ونبالة القصد ايدت ثقة الامة بسلطانها وجددت قديم همتها وسابق فتوتها ، وأحيت فى قلوبها حب الوطن بعد موته ، فبادرت الى بذل النفوس وكل نفيس لتدرأ عنه من رامه بشر . . » .

ويعبر اديب عن هذا الملق فى مناسبات أخرى يغدق فيها المديح والثناء على حكومة الخديو وحكومة السلطان عبد الحميد . وبهذا يُعبر عن نفسية ذلك البورچوازى الصغير ، الذى صعد من طبقة دنيا فقيرة أو بسيطة ، وتوصل إلى مركز وسط يحتك بواسطته بالأرستقراطية وذوى النفوذ ، فيُفارق ثوريته الأولى إلى التملق والرياء واستخدام جميع الوسائل للمحافظة على المركز وحظواته . إذن ، كانت ثورية أديب إسحق ثورية البورچوازى الصغير الثائر فكراً والانتهازى عملاً وفعلاً. ولانُزال نُلاحظ مثل هذا الثورى على مسرح السياسة فى جميع البدان العربية فى الوقت الحاضر ! .

وإذ يتأثر بأستاذه الأفغانى ، فإنه يُدافع عن الدولة العثمانية أو الإمبراطورية العثمانية ، ويرى أن جميع شعوبها تُضحى فى سبيل الحفاظ عليها . وقد برهن المسلم والمسيحى والتركى والعربى والكردى وغيرهم فى هذه الحرب عن غيرتهم على الحفاظ على هذه الإمبراطورية . لذلك يُنهى مقاله قائلاً :

«ولذلك لا يتعذر على العاقلين منا أن يُزيلوا آثار التعصب من أفكار الجاهلين ، فنكون جميعاً أمة واحدة لا تتعصب إلا لوطنها ولا تطلب إلا صيانته وتنقش على صفحات قلوبها (فلتحيا الأمة) (فليحيا الوطن) .

فأديب يعتبر الأمة العثمانية أمته ، والوطن العثمانى وطنه ، ولم نعثر فى «الدرر» له ولو على كلمة واحدة عن الأمة العربية والوطن العربى والشعب العربى ، والدفاع عن العرب ، بل هو متمسك بعثمانيته وشرقيته ، وقد جاءه هذا الاتجاه من أستاذه الأفغانى .

ولكن ألبرت حورانى يذكر أن أديب إسحق نادى بفكرة الجماعة العربية القائمة على وحدة الشعور إلى جانب مناداته بفكرة الجماعة الشرقية التى يُوحِّدها احتقار أوربا لها ومقاومتها للنفوذ الأوربى ، وفكرة الجماعة العثمانية التى تربط بينهما شريعة مشتركة وسلطة واحدة ورغبة فى العيش المشترك ، وفكرة «الوطن» الذى هو الوحدة الإقليمية التى ينتمى إليها جميع القاطنين فيها والغيورين عليها» .

ويُعبر أديب عن نزعته الإنسانية مرة أخرى بالتعبير عن كراهيته للحرب . إذ قال : «عرف الإنسان مضار الحرب ولم يتجنبها . فهل تلك طبيعة وجدت فى كيانه الحيوانى أم عادة تمكنت فيه بالاستمرار ، فصارت ملكة يتعذر التخلص منها . وهى مسألة تُؤدى إلى النظر فى هل طُبع على الخير أو الشر أو كان من عجائبه أن اجتمع فيه النقيضان . يجنى على نفسه بالحرب وهى بلية حتى إذا بلغت منه مبلغها بادر إلى تخفيف مضارها ، فمنه الداء والدواء ، والسم والترياق ، وهو بالجملة أبو العجب . فهو الهادم والبانى والزارع والجانى يحمل على ابن نوعه مقاتلاً ، ثم يدعو إلى إعانته . فهو يجلب الداء ويطلب الدواء ، ويجرح باليمنى ويضمد باليسرى . يُنادى بالحرب وما أدراك ما الحرب . هى باعث الهول والكرب . أولها شكوى وأوسطها نجوى وآخرها بلوى. ويقول فى مكان آخر «والأمم كارهة للحرب راغبة فى السلم» .